انتحار على أنغام الموسيقى

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 4149 / 2020

الترقيم الدولي: 5 – 463 – 838 – 977 – 978

الكتاب: انتحار على أنغام الموسيقى

المؤلف: هاشم محمود

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

انتحار على أنغام الموسيقى

مجموعة قصصية

هاشم محمود

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

الإهداء

إلى كل مناضل غيور سعى جاهدًا لتحرير

إريتريا

هاشم محمود

المقدمة

حياة الإنسان مليئة بالتجارب والعبر، ولكل إنسان مدرسته الخاصة في طريقة تعامله اليومي، وكذلك تقبله لنتائج تجاربه في شتى دروب الحياة؛ فكل إنسان يسقط تجاربه ومكتسباته الحياتية على فهمه للأمور وتقبله للآخر. نرى رجالًا ونساءً قدموا عصارة جهدهم من أجل الرقي بالمجتمعات، وآخرين تفننوا في تدمير ما بناه غيرهم، بقصد كان أو بغير ذلك، وليس من سعى لنفسه كمن سعى لمجتمعه؛ فالفرد الصالح له إسهاماته في بناء مجتمعه، أما دون ذلك فقد يكون أنانيًا، ولا يشترط بالضرورة أن تكون الإسهامات كبيرة، فربما يكون تثقيف الشخص لنفسه نوع من الإسهام الذي يحمي المجتمع من جهله، وربما محو أكذوبة مضللة قد تفسد أجيالًا تعد نوعًا آخر من الإسهامات المستنيرة، وربما قبول الاختلاف هو نوع ثالث من النهوض بالمجتمع.

وفي النهاية الكل يسهم بدرجاتٍ متفاوتة لرفعة مجتمعه؛ فالحياة مدرسة لا يمكن بالضرورة أن تجتازها بامتياز، فربما الحصول على درجة جيد تجعل الأمور أكثر تقبلًا.

والله الموفق والمستعان

هاشم محمود

ابنة الحرام

«الحي أبقى من الميت»، لا دايم إلا وجه الله، بتلك العبارات تودع صالحة آخر ما تبقى لها من الأقارب على قيد الحياة وهي جدتها شام، تلك المرأة العجوز التي تجاوزت الثمانين من عمرها.

الجميع يواسيها، يدعو للجدة بالرحمة ويدعو لصالحة بصلاح الحال وزوال الهم.

تعود الفتاة وحيدة من المقابر بعد أن ودعت جدتها، تجلس في غرفتها تبكي بحرقة شديدة غيابها الأبدي، فهنا انقطع الوصال، وذهب آخر ما كان لها قبل أن تفقد والديها في حادث سير.

لماذا تركتني وحيدة يا الله؟

لا أحد لي، ذهبت آخر من كان لي، رحمتك يا رب.

ترتدي صالحة ملابس جدتها شام، وتتوضأ لتصلي وتدعو الله لها بالرحمة وحسن رفقة الآخرة، لكنها لا يمكنها التوقف عن البكاء، لا يمكنها أن تتخيل المنزل بدونها، كيف لها أن تجلس في هذا المنزل القديم دون وجود تلك العجوز؟!

كيف لها تستيقظ دون أن تقبل يديها قبل الذهاب لعملها، ومن ينتظر عودتها حتى تقص عليها أحداث اليوم!

علاقة غير عادية، لم تكن فقط مجرد رباط بين فتاة وجدتها لأبيها، لكنها كانت كوالدتها وكأبيها وكأخيها وأختها وصديقتها،

هي كل شيء بالنسبة لها، لا أحد على الأرض يستمع لها، لا أحد أحق بصحبتها سوى تلك العجوز.

كانت تعيش في جزء متطرف من القرية، لا أحد يأتيهم ولا يتركون منزلهم أبدًا، فقط تذهب صالحة لعملها في المدرسة، بينما جدتها تعد ما استطاعت من الطعام لها حتى عودتها لتكمل ما بدأته.

أقسما ألا يفترقا، وكلما حاول أحد زملائها التقرب منها بغرض الزواج، إلا وكان أول ما تصمم عليه هو جلوسها في منزل جدتها لتكون برفقتها حتى انتهاء الأجل، وغالبًا لم يكن ذلك يعجب الرجال، ولكن الأمر لم يعد يشغلها؛ فهي لا تشعر أنها بحاجة لأحد في حياتها، هي ممتلئة حتى الشبع أو ربما ظنت ذلك.

فلم تكن كغيرها من الفتيات يتمنين الزواج وإنجاب الأطفال، كانت تشعر أن تلاميذ المدرسة أبناؤها، تنتظر قصصهم اليومية ومشاغباتهم التي لا تنتهي.

لا يشغلها شيء سوى تحضير دروسها التي تشرحها لطلابها، وتحضير الطعام لجدتها والاهتمام بها وبعلاجها، ودون ذلك لا يهم.

تذكرت لحظة قدوم دورتها الشهرية وحرجها الشديد من إخطار والدتها بالأمر والاستفسارعما يحدث لها، فذهبت مسرعة إلى جدتها لتخبرها بما أصابها، لتباركها الجدة وتعلمها أنها الآن

صارت فتاة كبيرة عليها أن تحسب ألف حساب لتحركاتها وعلمتها كيفية الاهتمام بنفسها وتطهيرها بعد الانتهاء منها.

ربنا يصلح أحوالك يا بنتي!

تنادي الجدة على زوجة ابنها لتخطرها بقدوم دورة ابنتها الشهرية، وعليها أن تغير معاملتها لها، وأن تكون أكثر عطفًا عليها وتفهما لها ولا تتركها لخيالاتها وأوهامها.

صاحبيها يا بنتي.

والله أنتِ السبب يا أمي في خسارتها، الفتاة لا تسمع لي ولا لوالدها، فقط تنفذ ما تقولينه أنتِ لا....

هذا الكلام غير الصحيح.

الفتاة تسمع من يعطف عليها، تهتم بمن يستمع إليها، تسرع إلى من يطمئنها، لا على من يفزعها ويأمرها طوال الوقت.

اكسر للبنت ضلع يطلعلها 24 ضلع.

والله أنتِ تحتاجين إلى كسر أضلعك.

لم تكن الجدة شام تحب زوجة ابنها لكنها كانت تعشق صالحة، كأنها هي من أنجبتها، وهي عزاؤها الوحيد من تلك الزيجة غير المرضية بالنسبة لها، فهي ترى أن ابنها كان أحق بزوجة أخرى تحبه وتقدره وليست مجرد امرأة.

ابنها كان مهندسًا زراعيًا هادئًا جدًا، عطوفًا عليها، يحب الجميع، يقبل بكل الأشياء، لا يعترض على شيء، يحمد الله طوال الوقت، يسعى لإرضاء والدته بكل الطرق، فقد مات والده قبل أن يراه، ولم تفكر والدته في الزواج وهي لا زالت في الثامنة عشرة من عمرها، فكيف لها أن تعيش كل هذا العمر دون رجل!

كيف تقضي حاجتها! كيف تسيطر على رغبتها!

هي لم تسيطر على رغبتها فقط بل قتلتها، ووهبت نفسها لتربية ابنها، أقسمت على التضرع لله ليل نهار لحمايتها من الفتن ومن رغباتها، وسهرت الليالي على رعاية ابنها حتى صار رجلًا يحترمه ويقدره الجميع، فكيف له أن يبتعد عنها أو أن يرفض لها رغبةً أو طلبًا، وهذا هو ما حدث في زواجه.

كانت تظن أن تلك الفتاة التي اختارتها لابنها هي من أفضل بنات القرية من وجهة نظرها، فهي مطيعة، هادئة، لم يتحدث عنها أحد بسوء، تقبل الجلوس مع زوجها ووالدته، وهو ما أسرع في إتمام الزيجة.

تبدأ المشكلات من الأسبوع الثاني من الزواج، حيث تلاحظ الأم أن ابنها بدا حزينا ليس كعادته، شارد الذهن، لا يأكل بشكل جيد، فتحدثت له بشكل مباشر لتسأله عن السبب.

لا شيء يا أمي، كل الأمور بخير.

لكنك لا تبدو كذلك.

أبدًا هو فقط من الإجهاد.

إجهاد! ما بك يا ابني أنت لا زلت في إجازة الزواج فمن أين يأتي الإجهاد؟

لا شيء.

تصمت الأم الحنونة لكن لا تترك الأمر، فتنتظر خروج ابنها لصلاة الجمعة لتستفسر من زوجته عن السبب لتخبرها أن لا شيء.

هل اشتكى لكِ من شيء؟

لا.

إذن لا شيء.

يا ابنتي هذا ابني الوحيد الذي خرجت به من هذه الدنيا، بل ضحيت بكل الدنيا لأجله، فلا يمكنني أن أتحمل رؤيته هكذا.

وما ذنبي؟ قلت لكِ لم أفعل له شيئًا.

أنا لا أتهمكِ بشيء، فقط أسألك.

اسأليه هو، فلا إجابة لدي.

إذن تحدثي إليه أنتِ يا ابنتي، افهمي منه، ابني طيب جدًا لا يستحق أن يكون هكذا تائهًا وحزينًا.

إن شاء الله!

تذهب المرأة إلى غرفتها، بينما تعد الأم إفطار يوم الجمعة، دائمًا ما يكون إفطارًا مميزا يتناوله الثلاثة بعد صلاة الجمعة وعودة الشاب إلى المنزل.

يأتي الرجل ويجلس بين أمه وزوجته يتناول الطعام، لكن لا ينطق، ولا يتحدث لأحد بشيء، فتحاول الأم أن تسأله عن أخبار العامة وعن صلاة الجمعة ومن رآه ومن هنأه بالزواج.

يجيب الشاب إجابات مقتضبة، لا تشبع الأم، فهي في الحقيقة لا تريد أن تعرف شيئًا، هي فقط تريده أن يتحدث ولا يستسلم لصمته.

تذهب الزوجة لإعداد الشاي، فتكمل حديثها مع ابنها وعن الزيارات التي جاءتها طيلة الأسبوع وعما فعله الأطفال بالمنزل، وكسر لوحة كانت غالية عليها جدًا، ليفاجئها ابنها: كل شيء يمكن تعويضه يا أمي.

تلك الإجابة لم تكن تعتاد عليها الأم شام من ابنها، فهو دائمًا ما يطيِّب خاطرها، لتبتسم: ربي يفرحني بأولادك.

أولادي! هكذا انتفض الابن وكأن ماسًا كهربائيًا قد لحق به.

نعم أبناؤك، ألا تحب الأبناء!

نعم! نعم! أحبهم يا أمي.

لم يمضِ على هذا الحديث أكثر من شهرين حتى جاء الخبر السار بأن زوجته حامل.

تفرح الأم وتعلن الخبر لجيرانها، لكن لم يكن الابن على هذا القدر من سعادة أمه.

تمر الأيام مسرعة وتشعر الأم بأن شيئًا ما يحدث لكن لا تفهمه، فقط شرود ابنها، لكن ربما بسبب المسؤولية التي تنتظره، وهذا الطفل القادم في الطريق، ربما لاختلاف الشعور، فجأة تحول من الشاب المدلل إلى الزوج المسؤول عن زوجة وأم، ربما مشاكل في عمله، ربما بسبب كثرة طلبات زوجته، كلها احتمالات جائزة.

آآآآه..آآآآه.. آآآآه.. صرخات شديدة ومتقطعة تصدرها الزوجة، لقد جاء موعد ولادتها.

ادفعي، هيا ادفعي، هيا.. أوشكت الرأس على الخروج.

تكتم الزوجة أنفاسها ثم تدفع مرة واحدة في صرخات مندفعة، لتخرج الرأس ويخرج باقي الجسد لتسريح المرأة وتخلد لتوها في النوم دون أن تعرف حتى جنس المولود.

«اللي يجيبه ربنا كويس»، هكذا قالت الأم شام بعد أن تأكدت من جنس الطفل.. إنها طفلة.

اتفضل يا ابني سمي.

بسم الله الرحمن الرحيم.. صالحة.

أسميها صالحة يا أمي.

اسم رائع توكل على الله.. ربنا يصلحها ويصلح أحوالها، ويجعلها صلاح للبيت يا ابني.

آمييين.

تأخذها الجدة وتؤذن في أذنيها وتكبّر وتشهد أن لا إله إلا الله.

تستيقظ الزوجة، تأخذ الطفلة تتأكد من جنسها.. فتاة.

صالحة.. إنها صالحة.. هكذا يجيب الزوج مبتسمًا.

صاااااااااااااالحة .. على البركة.

تخرج الزوجة ثديها لترضع تلك الصالحة، فيخرج الزوج ليبارك أمه، فيجدها تعد لها بعض من الشوربة تعويضًا عما فقدته من دماء وبعض المشروبات تخفيفًا لآلام الولادة.

ماذا تفعلين يا أمي؟

أعد الطعام لزوجتك، وأعددت لك طعامك الخاص يا ابني.

يقبل رأس والدته ويدها، الله يبارك عمرك يا أمي.

وعمرك يا أبو صالحة.

الحمد لله على كل نعمه وعطاياه.

تكبر الفتاة أمام أعينهم، تقترب أكثر من جدتها وتبتعد عن والدتها، يتابع والدها هذه المشاعر في صمت، سبحانك يا الله تعطي من تشاء بغير حساب.

صالحة تعويضًا عن مجهول، نبت طيب أضاف البهجة لتلك الأسرة الصامتة، وتلك الجدة الوحيدة والتي ليس لها من هذه الدنيا سوى ابنها.

اليوم المنزل صار به الجدة والابن والزوجة والطفلة التي كبرت وصارت في الثالثة عشرة من عمرها.

يا عمة شام .. يا عمة شام.

من الطارق؟ من ينادي؟

يا عمة شام؟ يا عمة شام؟

تفتح الجدة الباب، ما الأمر يا ابني؟

أسرعي ياعمة .. ابنك في انتظارك؟

أين يا ابني؟

هيا اسرعي؟ سنتحدث فيما بعد.

تذهب الأم مسرعة تجد ابنها على فـراش داخـل أحد المستشفيات الحكومية بين الحياة والموت.

تصرخ الأم وتبكي بحرقة على ابنها.

يفتح الابن عينيه: أنا بخير يا أمي.. أنا بخير.

الحمدلله! الحمدلله!

رحمة الله على زوجتك يا ابني.

علمت الأم بوفاة زوجة ابنها فور قدومها المستشفى، لكن حرقة قلبها على ابنها كان أشد من وفاة الزوجة.

بكى الرجل على وفاة زوجته وبكت معه الأم، فكيف لصالحة أن تحتمل الفراق، لكن كان عزاؤهم أن الطفلة أكثر ارتباطًا بالجدة عن الأم.

الحالة حرجة جدًا، جهاز التنفس بسرعة.. أسرعوا.

هيا.. هيا.

بوووووم.. بوووووووم.

لا إله إلا الله.. البقاء لله.

لا.. لاااااااااا.. ابني لم يمت.. لم يمت.. زوجته هي من ماتت.

تتألم الأم وتصرخ من الحزن وشدة الألم، فكيف لها أن تفقد ابنها وزوجته في يوم واحد.. رحمتك يا الله.

تبكي شام على الفقدان لكنها تتذكر صالحة التي لا زالت في الفصل الدراسي، تترك المستشفى، تجري مسرعة على المدرسة، تدخل دون استئذان، تبحث عن صالحة.. تأخذها بين ذراعيها، تبكي؛ فتبكي الفتاة على بكائها دون أن تعلم السبب.

وحيدة يا ابنتي مثل جدتك.

تأخذها من المدرسة دون أن تتحدث لأحد، لا ترى أحدًا، هي ممسكة بيد الفتاة، تأخذها لطريق غير طريق العودة للمنزل، تأخدها حيث الجثمان، تأخذها للقاء الأخير لتودع والديها.

تصعق الفتاة مما تسمع، لا تصدق، أبي وأمي في وقت واحد! تصمت ثم تبكي ثم تصمت ثم تصرخ، أبي وأمي! كيف يا جدتي؟ كيف؟!

حادث سير يا ابنتي.

كيف؟ كيف يا جدتي؟

وأمي لماذا خرجت مع أبي وإلى أين، هم لم يتركوا القرية منذ أكثر من عام، لماذا خطفهم الموت يا جدتي؟ الآن أنا يتيمة؟ وحيدة ! ليس لي أحد.

لك الله يا ابنتي.. كل حياتي لك.

تبكي الفتاة حتى الدفن، تأخذها الجدة للمنزل بعد قراءة بعض من الآيات القرآنية بعد انصراف أهل القرية.

تحتضن الجدة ملابس ابنها، بينما ترتدي الفتاة ملابس والدتها، فيبكيان معًا إلى أن يناما حزنًا وكمدًا وقهرًا.

يشتد الرباط بين الجدة شام والحفيدة صالحة؛ فتتقمص الجدة دور الأم، بينما قامت صالحة بدور الابن، لتعود الجدة كما كانت مع ابن واحد، ويعود المنزل هادئًا بكليهما، وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن الله فعل كل شيء من أجل الجدة ليسخر له من يظل دائمًا معها.

تخرج الجدة في يوم من الأيام فور ذهاب صالحة لعملها، فتعود قبل مجيئها، فلا تشعر صالحة بذلك، لكن يفاجئها زميلها في اليوم الثاني برؤيته لجدتها في أحد الأسواق لتنفي صالحة هذا الخبر، فجدتها لا تغادر المنزل أبدًا، لكنها تعود وتستفسرمن جدتها لتنفي ذلك الأمر، فإلى أي الأماكن تذهب! فلم يعد لها أحد سوى صالحة.

ماتت الجدة وبقيت صالحة يتيمة لا أم ولا أب ولا جدة، لا أحد، لها الله وحده، نامت في ثوب الجدة، لكنها استيقظت على صوت الأب!

صالحة صالحة.. ابنتي يا صالحة.

شعرت الفتاة بأنها تحلم، لكنها فوجئت بدقات متتالية على باب منزلها، لتفتح الباب فتجد رجلًا لا تعرفه يقدم لها واجب العزاء..

لا أحد هنا يا عم جدتي ماتت، تقولها باكية: لا يمكن لرجل أن يدخل في غيابها.

لست غريبًا.. أنا والدك.

والدي.

نعم.

والدي!!

تلعثم الرجل، أقصد مثل والدك، فهو كان صديقي المقرَّب، وكانت وصيته لي أن أكون بجوارك دائمًا.

لا تقتنع الفتاة بما يقول، لكن لا شيء يثير فضولها، مجرد شخص عابر تعاطف معها مثل بقية أهل القرية، لا شيء.

الجميع يتعاطف معها، تذهب لها صديقاتها المدرسات لإثنائها عن إجازتها وإقناعها بالعودة للعمل حتى تنسى مصابها، تقتنع على مضض، تعود لعملها، يتقرب منها زملاؤها، حتى التلاميذ يتعاطفون معها.. هي وحيدة بكل معاني الكلمة.

لا شيء يربت على قلبها، كل الأشياء تؤلمها، قلبها صار مجهدًا جدًا، فقدت الرغبة في الطعام ورغبة الحياة، لكن تبتسم لها الحياة ليدق الحب بابها بقدوم مدرس جديد للمدرسة فيعجب بها ويميل قلبها لتزورها السعادة مرة أخرى بعد مرور أكثر من عام على وفاة جدتها.

يعلم الرجل الذي شرع بزيارتها منذ فترة ليست بالقصيرة، وادّعى أنه صديق والدها بأمر شروعها في الزواج من المدرس زميلها، فيثور الرجل ويرفض تلك الزيجة بشكل قاطع، فيذهب إليها ويحذرها من الزواج منه، بل يذهب أيضًا إلى المدرس يحذره من الاقتراب من صالحة، دون أن يقدم مبررًا لها لهذا الرفض، بينما أخبر الرجل بضرورة الابتعاد عنها وإلا فضحه بين أهل القرية.

يخشى الشاب من الرجل لكن لا يكترث لأمره ويصر على الزواج بها، والفتاة يشتد عنادها، فما شأن هذا الرجل بها؟ ولم يتدخل في حياتها؟، فهي بلا أب ولا أم ولا جدة.. وحيدة بائسة.

لا يمكنني التخلي، لا أستطيع.. أنا أحبها.

لا بل أنت تغشها، فأنت لست ممن يتزوجون، فهل تريد أن أسرد لها ماضيك الأسود وغرامياتك النسائية المتعددة؟

افعل ما تريد.. لن تصدقك.. سأتزوجها.

يصرخ الأب: لن يحدث، لن يتم هذا الزواج.

بلى سيتم.

يصفعه الرجل على وجهه.. كيف لك أن تتزوج ابنتي رغمًا عني؟

ابنتك!

نعم ابنتي

كيف فهي يتيمة الأبوين.. لا أحد لها؟

يصمت الرجل ثم يواصل حديثه، لقد ارتكبت أنا ووالدتها الله يرحمها خطأ وجرمًا صبرعليه زوجها المسكين، فلم يفضح أمرها؛ فكنت على علاقة بوالدة صالحة قبل زواجها، وعرفت بحملها لكن لم أكن لأتزوج امرأة ثانية، وما كان من تلك المرأة سوى أن تتزوج برجل مسكين قد لا ينتبه لحملها، لكنه عرف من أول ليلة وكشف أمرها، فالتزم الصمت والصبر على هذا المصاب، فلم تقربه السعادة ولم يقرب زوجته حتى مماته، فصار أعزبًا متزوجًا ووالدًا بالإكراه.

يخيم الصمت على المكان، لا شيء يمكن أن يقال، ما هذا الهراء؟ هل يعقل أن تكون تلك كذبة كبيرة ابتدعها هذا الأب؟ لكن كيف؟ ولماذا يختلق كل هذه الأكاذيب؟

وهل هي تعلم بما حدث مع والدتها؟

بالطبع لا.. كل الأمور طبيعية جدًا بالنسبة لها.

وأنت كيف تأكدت أنها ابنتك؟ ربما تكون تلك المرأة قد أجهضت نفسها؟

لم تستطع وبقي الحمل وجاءت صالحة.

كيف تأكدت؟

من جدتها العمة شام؟

كيف؟

جاءتني صباح يوم لتخبرني أن ابنها وزوجته قد توفيا في طريقهما لرؤيتي، فأراد ابنها أن يعيد الأمور لنصابها الصحيح بعد أن عرف من هو الشخص والد صالحة الحقيقي بعد كل هذه السنوات، لكنهما ماتا قبل الوصول في حادث سير، وأراد القدر أن يبقى الابن ساعة على قيد الحياة بعد الحادثة، وكأن روحه تنتظر رؤية والدته لتخبرها بكل شيء لينزل النبأ كالصاعقة.

الأم التي تبكي كل شيء، تبكي السنوات الماضية والكذبة الكبيرة، وتبكي حزن ابنها كل هذه السنوات، وتبكي موته، وتبكي حزنًا على ما ينتظر تلك المسكينة التي تستيقظ على نبأ سفر المدرس الجديد لإحدى الدول دون حتى أن يترك رسالة واحدة لها.

لا تحزن صالحة، فقدت الكثيرين ولم يبقَ متسع للحزن، «خد الشر وراح» هكذا قالت وابتسمت.

لا شيء يدهشها، هي تعلم أن حبها كان هربًا من ظروفها.

لكن يبقى السؤال هل يعترف الأب بابنته؟ هل يخبرها بأنها لم تعد يتيمة؟ هل يخبرها أنها لم تعد وحيدة في هذا العالم، والدها لا يزال على قيد الحياة، ولها أخوة وأخوات؟ وهل تقبل كل هذا العبث؟!

وكيف لها أن تتحمل أخطاء غيرها؟ وكيف ينظر لها المجتمع؟ وكيف تشعر حينما تتذكر الرجل الذي تربت في كنفه؟ وجدتها التي لم تعد جدتها؟

***

خيانة فتاة تحب الإهانة

فتاة أقل ما توصف به أنها حمقاء، حتى وإن ادّعت غير ذلك، فكل أجراس الإنذار تدق لها لتخطرها أنها في علاقة مريبة ومهينة وغير آدمية، لكنها تفاجئك بجملتها المخيبة لكل محاولات إنقاذها: أردت أن أغيِّب عقلي.

تلك حماقة بالفطرة وبالرغبة، فتظن أنها بذلك تدرك جيدًا ما تقوم به وما يلم بها، لكنها تريد أن تتعايش معه، ربما تحب القبح وتستمتع بالإهانة.

حاولت أن تخرس بتلك الجملة كل من همَّ بإنقاذها أو أضاء نور الكشاف لها، لكنها تصر على أن تطفئه أو أن تُبقي الأجراس صامتةً مع سبق الإصرار والترصد.

لا تعلم صديقتها مقدار تعقُّلها وحجم مراوغاتها، لكن ما توقنه أنها لا تمتلك شخصية محددة وواضحة الملامح، أو ربما تلك الصورة المهينة هي شخصيتها الحقيقية والتي لا ترغب في الاعتراف بها.

إيمان فتاة تدخل في علاقة غير متكافئة على الإطلاق، فعندما تخبرها بجنون ومجون هذا الشخص واستهتاره بها وبآدميتها، تصر على إيجاد المبررات والدوافع له بأنه شخص بائسٌ مسكين

يتيم الأبوين، لم يجد من يحنو عليه، فتحاول أن تعيش دورها لدقيقة واحدة لتشعر برغبتك بأن تقذف رأسها في أقرب جدران أمامك ولا تتوقف إلى أن تتأكد من خروج هذا الغباء من رأسها.

ما علاقة الإهانة باليتم؟! كيف لفتاة أن تقبل السباب والعنف والتهديدات المستمرة بدافع العطف؟!

حاولت صديقتها مريم أن تتركها تفعل ما يحلو لها، لكنها لا تتحمل ضياعها، فتضيء لها النور في كل مرة، لعلها تنقذها لكنها تصر على السير في الظلام.

حياتها لا تستقيم سوى بأفلام الأكشن والرعب.

- لا أحب الروتين، لا أحب الحياة المسالمة لأربعة وعشرين ساعة، أحب كثرة الأحداث وتدافعها.

- لكن ما تتعرضين له إهانة.

لا ليست إهانة، هو نوع من العشم لا أكثر ولا أقل.

هي دائمًا تسرد المبررات غير المنطقية لعلاقتها غير السوية مع محمود، والغريب أنه عند تعرضها للإهانة يوميًا وبشكل دائم، تجدها تصرخ: لا أتحمل.. لا أتحمل! وما إن يمر يوم حتى تعود إليه مسرعة كأن شيئًا لم يكن.

ظنت مريم لبعض الوقت أن إيمان تحب الإهانة، وأن المشكلة عندها وليس عند الشخص المرتبطة به، ربما تحب العنف، والإهانة لكنها لا تريد أن تعترف بذلك، وإلا ما الذي أجبرها على الاستمرار في مثل تلك العلاقة؟!

بعد مرور أكثر من عامين في صراع دائم وتجاوزات لا يتحملها إنسان، وإهانات ما أنزل الله بها من سلطان، فالجميع يسمع بها وعنها، لكنها دائمًا تردد: هم يشعرون بالغيرة من ارتباطي به، كل الفتيات يتمنونه زوجًا لهن.

أصبحت إيمان ترى كل الفتيات غريمات لها، كلهن يردن أن يسرقن حبيبها، دون أن تكون هناك صفة وحيدة حقيقة وملموسة في هذا الشاب، فهو تملؤه العيوب من كل جانب، لا يوجد شيء عنده يشفع لشيء لتجعله تقبله، لكنها تجده فيه ذكورة لم تجدها من قبل.

ظنت إيمان أن عنفه قوة، وأنه الأنسب والأجدر بحمايتها من الجميع، ولم تعلم أنها أول من يوجه لها العنف والإهانة.

أحيانا تتساءل: لماذا هذه الفتاة المسكينة ترضخ لكل هذا، فلا وجود لسببٍ واحدٍ يجبرها على استمرار العلاقة، فالحب بريء من ذلك النوع من العلاقات، الحب يسقى بماء الاحترام.

زارته على غفلة في إحدى المرات، فوجدته يخرج امرأة من منزله بشكل مهين، لكن لم تكن الرؤية واضحة لمعرفة من هذه المرأة بسبب انقطاع الكهرباء عن المبنى بأكمله، لكنها سمعتها تردد: أنا أمك! عيب يا ابني!

صعقت إيمان مما سمعت، لكنها أنكرت الأمر على أذنيها، فهذه ليست أمه، فهي تعلم أن أمه تسكن في أقصى البلاد، فمن أتى بها في هذا اليوم؟!

تنتظر إيمان على الدرج حتى يعود سريان الكهرباء، ولا تسمع سوى: أنا آسفة يا ابني! لن أكرر الأمر ثانية!

تنزل المرأة من على الدرج، فتقع من على إحدى العتبات المكسورة لتحاول إيمان أن تأخذ بيدها، فتشكرها العجوز لكنها سرعان ما تبعد يدها عنها، فالكهرباء قد جاءت، ويبدو أن تلك الفتاة هي السبب في أن يقوم محمود بطردها من المنزل.

تتعجب إيمان من تصرف المرأة التي ظلت تردد: الله يلعنكم دنيا وأخرى! اتقوا الله!

العجوز هي فعلًا والدته التي كانت ترجوه منذ بضع دقائق، لكن ترجوه على ماذا؟ ولماذا أصر محمود على طردها؟ وهل

يعقل أن تكون هذه معاملة تليق بأم؟ وما الجرم الذي اقترفته لكل ذلك؟، حتى وإن فعلت فهي الأم وعلى الابن أن يطيعها ويعذرها إن أخطأت.. ما الأمر إذن؟

تلملِّم إيمان شتات نفسها، فهي تصر على معرفة الأمر لتذهب للطابق الرابع وتدق الجرس، ليجيب محمود:

– اذهبي يا أمي لساعة واحدة ويمكنك أن تأتي بعدها.

– ساعة واحدة!

تصر إيمان على الدق، وهو يتأفف من خلف الباب لكنها لا تتفوه بكلمة واحدة، فهي تريد أن تفهم ماذا يحدث؟ ولماذا فعل كل هذا بأمه؟!

يضطر رغمًا عنه أن يفتح الباب ليفاجأ بإيمان فيقول من هول المفاجأة: أنتِ! ماذا تريدين! لماذا أتيتِ الآن؟ لماذا لم تتصلي به؟ هل هناك شيء؟!

أمطرها بوابل من الأسئلة غير المنطقية دون أن يعطيها فرصة واحدة للإجابة، وهي فقط تنظر لعينيه تارة ولخلفه تارة أخرى، تريد أن تفهم ما يجري.

تسمع صوتًا يأتي من الداخل: يا محمود! كل هذا على الباب، أدخلها في الغرفة الثانية، لا داعي لتركها.

تصعق إيمان مما تسمع، تلقي بذراعه جانبًا، تدخل الغرفة مباشرة لتجد فتاة من فتيات الليل تجلس على مائدة ممتلئة بالطعام وبعض من المشروبات والأنوار الخافتة، فقد جاءت لتقضي ليلتها معه.

تصرخ إيمان ولا تدري ماذا تفعل سوى أن توجه اللكمات والضربات على وجهه وجسده، تصرخ بملء قوتها، كيف لك أن تفعل هذا؟ كيف لك أن تخونني؟ كيف لك أن تهين والدتك؟ أتفضل ذكورتك عن رجولتك؟

- أمك أيها الحيوان! أمك!

- وأنتِ هل حصلتِ على أجرك؟ هيا اذهبي.

يمسكها محمود بملء قوته:

- اصمتى ولا تنطقي، صوتك أيقظ العمارة أيتها الغبية!

- هل يهمك مظهرك؟ وماذا يساوي مظهرك أمام أمك؟ حتى تلك المرأة لم تزجرك عن وقاحتك مع أمك.. غدًا ما فعلته سيُفعل بك.

تترك إيمان كل ذلك، تتألم في صمت، تنزل الدرج مسرعة لتجد تلك العجوز ما زالت تحت المنزل، تأخذها من يدها لتقص عليها قصة فتاة غبية جدًا لم تحب أن تسمع لأحد سوى نفسها،

لتشعرالمرأة أن إيمان تتحدث عن نفسها، لتقص عليها تلك العجوز قصة أم أفسدت ابنها، والآن تجني حصاد ما قدمته، فلم تعترض على طلب، بل نقلت ملكية منزلها إليه، والآن يخرجها منه بكل إهانة فقط لإرضاء متعة جنسية مع فتاة ليل، ضحى بتسعة أشهرمن الحمل وعامين من الرضاعة وأكثر من 33 عامًا من التعليم والتربية لأجل متعة لا تتعدى نصف الساعة.

يبكيان ويضحكان، لا تعلم من منهما بحاجة للأخرى، هاتان المرأتان بحاجة لبعضهما البعضح فهدفهما الخلاص من ذلك الألم، إيمان تتخلص من ألم الخيانة والغباء، فلم تستمع أبدًا لرأي صديقتها مريم، بينما تلك العجوز أرادت من أن تغتسل من حصادها السيئ والتي لم تحتكم لرأي العقل والمنطق في أن تحمي نفسها من غدر ابنها، فضحت بممتلكاتها لأجله، والآن تعيش بين منازل أخواتها، لتردد على إيمان: هو يشبه والده كثيرًا، لايملك في قلبة رحمةً.

تحمد إيمان ربها على الخلاص حتى وإن ضاع من عمرها عامان، لكن القدر أنقذها من زيجة شديدة العذاب وأبناء من نبت الشيطان.

***

انتحارعلى أنغام الموسيقى

جاءت فرقة فنية حماسية تابعة لإحدى الفصائل الإريترية إلى أحد معسكرات اللاجئين الإريتريين بالسودان، حيث توجد معسكرات للاجئين الإريترين بكل من اليمن وجيبوتي والسودان وإثيوبيا، وتحديدًا السودان لوجود نسبة كبيرة من الإريتريين به، وكذلك أقدم موجات اللجوء الإريترية كانت إلى هذا البلد الجار والصديق للشعب الإريتري، كان ذلك بفصل الصيف تحديدًا منتصف إبريل/ نيسان، في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، تتكون الفرقة الفنية من 25 شخصًا، فنانين وفنانات وعازفين وإداريين كانوا يستخدمون أوتوبيسًا صغيرًا من نوعية مرسيدس أخضر اللون، وكأنه من مكتسبات الثورة والتي غنمته من العدو الإثيوبي في إحدى معارك التحرير.

المدارس والمعاهد الدينية كانت في إجازة، ليس هناك أعمال زراعية في هذا الفصل، وشباب المنطقة بالنسبة لهم موسم حافل باللقاءات الكروية التي يكون التنافس فيها بين أبناء المنطقة الواحدة أو بين بعض المناطق.

وصل خبر الفرقة الفنية بأنها في طريقها إلى المنطقة، فالكل في انتظارها، وطبيعة المنطقة ليس بها اختلاط بين الرجال والنساء حتى فى مدارسهم، فكيف سيكون الحفل القادم؟!

ربما يكون يوم للنساء وآخر للرجال، لكن من الصعب الجمع بينهم إلا فيما ندر، في المنطقة تعيش حالة استعداد غير طبيعي خاصة من المجموعة التي لها ولاء مطلق لهذا التنظيم رغم قلتهم.

المسجد يلعب دورًا بارزًا في تحريم الاختلاط، سفهاء القوم لا يبالون، شأنهم في ذلك شان الغالبية الصامتة التي ترى في الفرقة القادمة لحظة التقاء بأرض الوطن، كيف لا وهؤلاء قادمون من أرض المعارك، وقبل قدوم الفرقة بيوم كان مجموعة من الشباب يفكرون في كيفية الالتحاق بالثورة؛ فإن حياة اللجوء سيئة، وقيمة الوطن أسمى وأكبر من أي شيء، فإذا لم يكن لديك وطن فإن حياتك كلها ستكون لأجل خدمة الآخر، وليست لخدمة قضية أو هدف نبيل يمكن للشخص أن يعيش من أجله.

الكل يفكر وفق ما يراه مناسبًا.. أحمد وإبراهيم وجمال خريجو الثانوية العليا قبل عام، ليس لهم أمل في الحصول على فرصة الدراسة الجامعية، فببساطة هناك قلة شديدة في الفرص الدراسية المتاحة للأجانب.

هنالك بعض الفتيات من منسوبي ذلك الفصيل الثوري يعملن على تحريض النساء خفية، تجدهن يتحركن من بيت لآخر من أجل أن تشارك النساء، بل يطالبن بالمشاركة في النضال من أجل تحرير الوطن.

حالة من الترقب تعيشها المنطقة بين مرحِّب ومتحفظ، والأطفال مبتهجون من أحاديث الكبار، إنه الحنين إلى الوطن، أما منسوبو التنظيمات الأخرى فالذي يشغلهم إفشال هذا الحفل مهما كلفهم من ثمن.

أصبحت مقاهي المنطقة منتدى سياسيًا لتبادل الهجمات بين الرجال وفي البيوت، النساء يدبرن الحيل وما أجمل حيلهن، للقرية مشتل زراعي يمسي به معظم الشباب، يتبادلون أطراف الحديث، أصبحت المنطقة خلية نحل، وفي حالة ترقب لتلك الأمسية، نساء يزرن مكتب الفصيل الذي أصبح وكأنه بيت عرس، الجميع يعمل ويسهم من أجل إنجاح تلك الليلة، مجموعة من الشباب يقدمون مقترحًا ألا وهو تكوين لجنة هدفها ضبط خروج ومشاركة النساء، بعض الكبار يوافقون، ومجموعة أخرى تعلن التمرد، فلا بد من مشاركتهم، ففي النهاية هذا واجب وطني، والكل حر في رأيه.

إمام المسجد يتخذ منبر الجمعة للتذكير بمخاطر الاختلاط وآثاره الاجتماعية السيئة على الجميع، وأنه لا ضرورة لهذا الاختلاط طالما أنه ليس لأمر شرعي أو وطني.

للقرية ملعب كرة بدائي يقع بالناحية الشمالية، يعد ضمن الخيارات لإقامة الحفل، فكان القرار بأن يكون مسرحًا للحفل الساهر.

الملعب قريب جدًا من آخر منزل بالمنطقة، على بُعد 20 مترًا فقط، وهذا سيساعد من لم يتمكن من حضور الحفل؛ فبإمكانه سماع ما يجري هناك، ويسهل خروج النساء في ظل الظلام العاتم بالمنطقة.

تم تحديد الموقع والزمان فسيكون يوم الجمعة بعد صلاة العشاء موعد انطلاق الحفل الساهر.

نهار الجمعة يدخل أوتوبيس الفرقة الفنية سوق القرية، يتجمع حوله الأطفال وقليل من الشباب، تنزل بعض الفتيات من الأوتوبيس في منظر استعراضي للقرية.

بعض الشباب يهمسون، وشباب يلتفون حول الأوتوبيس، والأخبار تنقل إلى النساء بالمنطقة، يتحرك الأوتوبيس متوجهًا صوب مكتب الفصيل، حيث الاستقبال الخرافي من قبل المنتسبين.

تُسمع زغاريد النساء بكل أطراف القرية، والذبائح تجهَّز إكرامًا لهم؛ فالضيف يُكرم، وليمة كبرى بمناسبة قدوم الفرقة الفنية، ارتفعت الحماسة، تحرك الشياب قبل الشباب، سقطت كل الأقنعة.

فكر أحمد جيدًا في الأمر، إنها الفرصة والمناسبة التي يمكن أن يلتحق بالثورة.

إبراهيم يسأل: متي بالضبط يبدأ الحفل؟

جمال: عند الثامنة مساءً.

إبراهيم: لقد قابلت شخصًا سهَّل لي مهمة الالتحاق.

أحمد: متي؟ وكيف؟

بعد نهاية الحفل:

- إذن أنا معك.

جمال: وأنا كذلك.

تبدأ التجهيزات، تخيلات الميدان بعد مشاهدته للفرقة الفنية، إنه القرار الصعب، مجموعة من الشباب تتخذ القرار، وفي انتظار التنفيذ، إنه الشوق للميدان، حياة الجندية من أجل استعادة الوطن المسلوب.

حانت ساعة اللقاء من عصر اليوم الفرقة الفنية تقوم بتركيب الأجهزة الموسيقية، والجميع يسجل حضورًا، الشباب يذهبون أفرادًا وجماعاتٍ، الشباب يتساءلون عن التجهيزات، بعض نسوة التنظيم يذهبن ومعهن أخريات.

ما يزال الوقت مبكرًا، تتأهب المنطقة للقاء من نوع آخر، وفي المساء الكل يذهب إلى ملعب الكرة زائرًا ومتفقدًا، وأوتوبيس الفرق الفنية يجوب المنطقة بين مكتب الفصيل وملعب الكرة مقدِّمًا عرضًا أوليًا.

أشخاص يرون اليوم سهرة من نوع آخر، اختلاط، رقص، رياضة صيفية استعدادا لموسم الخريف، وآخرون يجدونه حفلة ساهرة إلى الميدان، فمن يستطيع منعهم من الالتحاق بالثورة؟

يقف آخر في وسط سوق المنطقة معلنًا بأنه أول من سيتبرع بأيّ مبلغ، مُحمِّسًا الشباب، ويردد: إنه يوم من أيام الوطن.

أحدهم يسأل شلال: هل ستنضم إلى المتابعين للحفل؟

– نعم، وسأرقص بكل فخر، لأنه أول حفل ساهر في عمري ومجاني.

شلال: أنت تشجع الشباب على الفوضى؟

فلتكن فوضى ليومٍ واحد.

يحيط الظلام المنطقة بعد غروب شمس ذلك اليوم، تتحرك المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، حركة فيها كثير من الضوضاء، أطفال يبكون، شباب يهرجون، نساء وبنات في مجموعات يتحركن، شباب يتسابقون، ماذا أصاب القوم؟!

إنها اللحظة الأولى من سماع الموسيقي، التي حوّلت ليل المنطقة إلى نهار، الأكثرية الصامتة في الصفوف الأمامية من الحفل الساهر، أب يجري خلف أطفاله إلى أن يصل ويستمتع بالسهرة لأنه ببساطة

لا يميزهم وسط السهرة من شدة الزحام، خلفية الفرقة الفنية علم الثورة، الذي كان شعار البرلمانات الإريترية في المرحلة الانتقالية، وهو غصن الزيتون وفي الطرف الآخر علم الفصيل الثوري في قطعة قماش بطول يزيد على خمسة أمتار باللون الأبيض تحت شعار مكتوب باللغة العربية والتجرنية «الحرية تُسقى بالدماء».

تسهر المنطقة حتى الساعات الأولى من الصباح في أغاني حماسية تم الإعداد لها بدقة، كل المنطقة هنا بالحفل الساهر إلا القلائل، كعادة القرية تنام بعد صلاة العشاء ويلفها السكون، أما اليوم فهم في أمسية على غير العادة ربما لا تتكرر قريبًا، ولو أن لصًا دخل القرية لأخذ منها ما يريد من بهائم وممتلكات دون أن يشعروا به!

وآخر يتشاجر مع عروسه في أسبوعها الأول لأنها تريد المشاركة، وزوجها يرفض، وبانتهاء الحفل الساهر تودعهم الفرقة الفنية على أمل اللقاء بأسمرا بعد تحريرها، إنها الأمنية التي يتمناها كل إريتري في تلك الأيام خاصة بعد أن التحق بها الكثيرون من محبي الوطن من النساء والرجال.

وفي صباح اليوم الثاني إذا بسوق القرية شبه خالية، لأن الغالبية العظمى من السكان على غير العادة قد قضوا سهرة، ولم يتعودوا عليها.

شلال يسأل أحدهم: كيف وجدت السهرة؟

- إنه يومٌ ممتع.

والنساء يقدمن شرحًا لبعضهن البعض عن الأغاني والحضور والرقص، وكانت العروس تستمع لهن وهي تتأسف لعدم حضورها تلك السهرة الشيقة، والتي لن تتكرر قريبًا.

في المساء يأتي زوجها، وتوجه له أسئلة:

- لماذا تمنعني من الذهاب إلى الحفل؟ كثيرات من صديقاتي ذهبن!

- يا زوجتي إنني ضد الاختلاط.

- غدًا ستقام حفلة بالمنطقة المجاورة فلا بدَّ من أن نذهب معًا؟

- مستحيل!

تتوقف عن الكلام في صمت مهيب، الزوج لا يبالي ولا يهتم، يرقد في سريره ويدخل في نوم عميق، يقوم بعد وقت قليل وزوجته في نفس الوضع الذي تركها فيه، لم يسألها أو يتقرب منها ظنًا منه أنه عناد النساء، ويعود إلى فراشه ثانيةً وهي تنظر إليه نظرة يأس ووداع، وبينما هي في الوضع نفسه تتخيل الحفل والمناظر، والليل يشارف على الوداع ونسمات الصبح تلامس وجهها، والأرق يأخذ

قوتها، تتجه نحو الشجرة بمنتصف فناء البيت، إنها شجرة الألوب التي وجدها صاحب البيت قبل أعوام وهي في مكانها.

تنظر إلى زوجها مرة وإلى الشجرة مرة أخرى، أخذت حبلًا متينًا كانت تستخدمه في تنشيف الملابس، وربطته في أعلى الشجرة العالية مستخدمة أحد طاولاتها كي تتمكن من الوصول إلى قمة الشجرة، وأصبح الحبل يهوي من أعلى إلى أسفل الشجرة مشكلا جسمًا موازيًا للشجرة، يتوسط طول الشجرة، وتلف أجمل ملافحها الصوفية بيضاء اللون التي أهداها لها أخوها حول رقبتها، وتربط الحبل حول رقبتها ربطةً محكمة، وتستخدم أحد أطراف الطاولة للصعود، تم تنادي زوجها بأعلي صوت وتردد: وداعًا لليوم الأسود الذي جمعني، وتركل برجليها الطاولة، فتقع الطاولة على مسافة بعيد عنها وتتهاوى العروس بين الشجرة والأرض، منهية بذلك شهر العسل في أيامه الأولى.

ويبقى السؤال: هل من المنطق أن تنتحر تلك العروس بسبب حفل؟! أم أن عدم حضور تلك الحفل هو القشة التي كسرت ظهر البعير؛ فكانت النفس تحمل الكثير من الغصات التي ما استطاعت البوح بها لأحد، وربما كان انتحارها نوعًا من الهروب من واقع لا تقبله لكنها اضطرت إليه، وربما كان واقعًا لما كانت عليه الثورة آنذاك.

***

زواج بقرار قبلي

إقليم دنكاليا يقع على ساحل البحر الأحمر، عاصمته مدينة عصب؛ فهي ثاني أكبر ميناء إريتري. تقع في موقع استراتيجي مطلة على باب المندب، يعمل معظم سكان هذا الإقليم بالثروة السمكية من استخراج أسماك ولؤلؤ وأصفاد، وآخرون يعملون بالثروة الحيوانية من ملاك ورعاة؛ حيث تجد بهذا الإقليم الأبقار والأغنام والإبل، وآخرون يعملون بالزراعة بنوعيها البستاني والمطري.

وتعتبر الإدارة الأهلية العشائرية ذات الحكم وإدارة المناطق المختلفة لهذا الإقليم الإريتري، كان زعماء القبائل يتشاورون فيما بينهم في كل الأحداث الداخلية والخارجية لهذا الأقليم، وتكون غالبًا الصراعات هنا بين الرعاة وملاك الأراضي الزراعية، والتي تحسم بصلح يقام بين القيادات الأهلية وقرارها دومًا يحظى باحترام جميع الأطراف المتصارعة.

العادات التي تحكم هذا الأقاليم تعتبر قانونًا يحفظ بين أبنائها.

في موسم الشتاء تقام معظم المناسبات حيث تكون درجة الحرارة منخفضة، حيث تشهد اعتدالًا في الأجواء واختفاء الرطوبة، وكذلك درجة الحرارة العالية في بقية موسم العام.

يتميز إنسان هذه المنطقة بملابسه التقليدية التي تتكون من الأحذية الجلدية والملابس التي تتناسب وظروف المنطقة، والخنجر رمز يستخدمه هؤلاء الأشخاص.

للإقليم حدود بحرية وبرية مع دولة جيبوتي، وحدود أخري برية مع إثيوبيا، وقبائل الأقاليم امتداد لبعضها البعض في تلك البلدان.

من الصعب أن تميز بين جنسياتهم، ولكن سكان الإقليم يعرفون بعضهم البعض جيدا، ببساطة اللهجة هي نفس اللهجة مع اختلاف في بعض مخارج الحروف، وكذلك الزي متشابه بينهم.

برودلي قرية صغيرة في إقليم دنكاليا، تبعد عن ساحل البحر الأحمر قرابة 20 كيلومترًا، يوجد بها مسجد كبير تقام فيه الصلوات، وأهمها صلاة الجمعة حيث يؤمهم الشيخ عثمان الرجل الستيني العمر، والذي يخطب باللغة العربية، فهو خريج الأزهر الشريف، ووالده كان يعمل بتربية المواشي ويعتبر من وجهاء برودلي، يحضر جميع سكان القرية صلاة الجمعة التي تعتبر تجمُّعًاأسبوعيًا يتفقدون فيه بعضهم البعض، بعد مضي أسبوع حافل كل في عمله.

هنالك مساجد صغيرة تقام فيها الصلوات الخمس، وللقرية سوق صغير يقع بوسطها وهو عبارة عن دكاكين صغيرة تعرض فيها المنتجات المحلية، ويرتاده سكان القرية لقضاء احتياجاتهم اليومية.

يُهِمُ الشيخ عثمان بشرحٍ وافٍ لخطبته مستخدمًا اللهجة المحلية، وذلك كي تعم الفائدة؛ لأن الكثيرين قد لا يفهمون اللغة العربية جيدًا، وبعض انقضاء صلاة الجمعة تجد الناس يتبادلون التحية، ويسألون بعضهم البعض عن الأحوال العامة والخاصة، وإذا كانت هنالك مناسبة فرح من زواج أوعقيقة تكون الدعوة قد قدمها إمام وخطيب المسجد، فتجد الناس يتحركون في مجموعات صوب بيت المناسبة، فهو مؤتمر مصغر بطقوس محلية، وللشياب مجالسهم الخاصة وأحاديثهم التي يتناولون فيها أيام الصبا، ويتبادلون أطراف الحديث.

وللبحارة حياة أخرى؛ فهم يخرجون في صباح كل يوم بالأهازيج والأغاني التي تكون حماسية في معظم الأوقات، وأخرى تكون في سبيل التباهي بأسماء المراكب التي يستخدمونها في صيد الأسماك، وطقوسهم جميلة جدًا، يتحركون في خطوط متوازية إلى منتصف البحر، ومنها كل يودِّع الآخر بلهجته المحلية، على أمل اللقاء في صباح آخر وبروح جديدة، أما في المساء فغالبًا ما يأتون إلى الساحل في أوقات مختلفة، كلٌّ حصد ما قسمه الله له من رزق.

عندما يتعطل مركب أحدهم يصرخ بصوت عالٍ مسموع مناديًا رفاقه، طالبًا النجدة، فيهرعون إليه من كل اتجاه ويقومون بتقديم المساعدة له.

حياة البحار غالبًا ماتكون فيها صعوبة وخشونة في التعامل، أما هنا فكلها مرح وسعادة، ولبحارة إقليم دنكاليا ميزةٌ أخرى جميلة وهي المساهمة في رفع المعاناة عن الفقراء بتقديم ما تبقّى من بيع السمك إلى المحتاجين من أبناء المنطقة، وبذلك يكونون قد حافظوا على بيئة عملهم وخففوا من حاجة المجتمع.

أحمد ابن عمدة قرية بده التي تعتمد بشكل كبير على الزراعة يمتلك بستانًا كبيرًا ومشهورًا وسط أهل المنطقة، وقد دأب أحمد على المساهمة في العديد من الأعمال الخيرية لأبناء المنطقة، فتجده تارة يسهم في زواج أحد أصدقائه بتقديم كل أنواع الخضروات التي تخص المناسبة.

ظل البستان مَعْلَمًا بارزًا لبلدة بده وضواحيها، وبينما هو على هذه الحالة يذهب صباحًا ويعود في المساء طيلة أيامه، ولأحمد أصدقاء كثر وسط شباب المنطقة، فهنالك حامد الذي يعمل برعي البهائم، يخرج صباحًا صوب المراعي ويعود مساءً، يتحاشى في حلِّه وترحاله دومًا البساتين، كي لايحدث بها أيَّ ضررٍ نتاج دخول الثروة الحيوانية.

يعمل في بستان أحمد خفير يتابعه ويسكن بكوخ صغير بالطرف الشمالي للبستان.

وذات يوم من أيام فصل الشتاء القارس، تدخل بهائم حامد بستان أحمد وتحدث أضرارًا كبيرة، وكان حامد يعاني من بعض الآلام ببطنه، واتكأ على جانب إحدي أشجار مراقبًا البهائم من على بعد، وبينما هو في هذه الحالة إذا بغفوة نوم تأخذه إلى أحلام بعيدة المنال، فيتخيل أنه تاجر ومالك مزارع وبساتين وله سيارات.

يتحرك الخفير غاضبًا نحو البهائم ضربًا، ويخرجها من البستان بعد معاناة كبيرة لعدم خبرته في هذا المجال، وبعدها يبحث عن الراعي، فإذا به في نوم عميق، يحركه وكان لم يكن هنالك شيء:

حامد: ماذا بك؟

لا إجابة.

ينظر إليه نظرة ثم يتبعها أخرى دون جدوى.

يصرخ بصوت عال:

- يا حامد ماذا بك؟

ينهض حامد من غفوته: يا الله! ما أجمل هذه النومة!

تستفز هذه الكلمات خفير البستان فيتوجه إليه بضربة قوية مستخدمًا تلك العصا الغليظة الحجم.

يسقط حامد مفارقًا الحياة، الخفير مذعور مما يجري أمامه، يحاول جاهدًا إنقاذه دون أمل، فقد مات وماتت معه أحلامه السعيدة، الخفير يتحرك صوب بيت العمدة مهرولًا يسلم نفسه:

العمدة يسأله: ماذا بك؟

- الراعي مات.

- من الراعي؟

- حامد.

- أين هو الآن؟

- جوار البستان.

تدخل البهائم إلى البستان فتقضي على ما تبقى به من زرع، العمدة يخبر بعض مساعديه ويطلب منهم إحضار الجثمان، الجميع يتحرك نحو المزرعة فيجد كل شيء قد انتهى، والآن الأبقار ملتفة حول راعيها الذي فارق الحياة.

يحملون الجثمان إلى منزل العمدة، ومنها يبلغ الخبر إلى كل القرى المجاورة، وتقوم الإدارة الأهلية للقبيلة بواجبها نحو القتيل، يتم التحفظ على الخفير بمنزل العمدة لحين الفصل في الأمر، يجتمع أهل القتيل بمجلس العمدة للتفكير في الأمر.

يسرد الخفير كل تفاصيل القضية: أشهد الله بأنني قد أخطأت في التصرف، إلا أنه خطأ كبير كلفني قتل رقبة.

يُعقد مجلس الحل والعقد القبلي يتوسطهم أحمد صاحب البستان، يجلس الجميع في صمتٍ مهيب، يدخل العمدة وأركانه في مجلس مغلق، يتحاور مع أهل القتيل، وبعد حوارٍ مطوَّلٍ كعادة كل القضايا، يخرج الجميع بأن القتل كان خطأ ويعتمدون صحة رواية الخفير، ولكن لتأكيد المصداقية يطالب العمدة بأن يؤدي الخفير القسم، يتوضأ الخفير ويطلب المصحف ويطلب منه وضع يده، ويسرد تفاصيل ما جرى، وقد فعل الخفير ذلك.

انتهت مراسم المحكمة الأهلية بكل بساطة ودون أي تعقيد وقرر المجلس دفع دية لأهل المتوفى، متطلبات الدية، 25 بقرة، 30 من الأغنام، و45 من الإبل.. يوافق الجميع، ويحدد شهر من أجل تقديم الدية لأهل المتوفى، يجتهد العمدة وبقية أفراد القبيلة في جمع كل تلك الأشياء المذكورة، من الثروة الحيوانية، فكل يسهم حسب استطاعته،وللبحارة دور كبير في المساهمة بما يستطعون، ويقدِّم شيخ وإمام المسجد الموعظة المستفادة من هذه الحادثة تجنُّبًا للفتنة.

الكل يعمل على تلطيف الأجـواء هنا لأن الحدث كبير، والمصيبة جلل.

يقدم العمدة اقتراحًا بأن يقوم بتزويج أخت القاتل لأحد إخوان القتيل، وإحدي أخوات القتيل لأحد من إخوان القاتل، يوافق الطرفان، وذلك حقنًا للدماء، وباعتبار أن هذه الحادثة هي الأولى من نوعها في الإقليم.

تجمع الدية ويتم اختيار العريس والعروس من أجل القاتل، ويتوجه الجميع لقرية القتيل، ويتم استقبالهم بكل كرم وضيافة، يجلس الجميع تحت ظل تلك الشجرة، يتبادلون أطراف الحديث، ويقدم العمدة الدية لأهل القتيل، ويطلب منهم أخًا وأختًا للعريس، ويقدم والد القتيل، وهنا يقدم لهم أخًا وأختًا من أهل القاتل، ويشرح لهم المقترح إذا لم يكن لديكم أيَّ مانع.

يتشاور الجميع، تبدأ برتوكولات الزواج الشرعي، وعقد القران، فوجود الشيخ عثمان أسهم في حسم العديد من الأمور، وساعد بدوره في تهيئة الأجواء وصبغها بطابعٍ ديني، تم الزواج بين الطرفين واحتفل الجميع بهذه المناسبة التي كادت أن تفتك بالنسيج الاجتماعي للمجتمع، وبعد عامٍ وُلِدَ طفلان من الزوجتين فكان التسابق بينهما في تسمية الطفل باسم القتيل «حامد».

***

زفاف على قبر ميت

تستعد زهراء لإتمام زواجها والخروج من منزلها في عرس كبير منَّت نفسها به منذ عدة سنوات، كغيرها من باقي فتيات القرية اللاتي أنهين تعليمهن، لينتظر أخواتها مثلها هذا العرس حتى يجنين حصاد وتبعات خروجها من المنزل لتقسيم مقتنياتها القديمة والمستعملة بينهن.

- لا أريد شيئًا سوى ملابسك.

- وأنا تعجبني أحذيتك أحذيتك.

- أنا لا أريد هذا ولا ذاك، من اليوم هذا الفراش لي، أخيرًا أصبح لي فراش بمفردي أنام عليه دون مشاركة.. شكرًا يا رب.

تنظر زهراء إليهم مبتسمة على التركة التي قسمت بينهم دون أدنى اعتبار لموافقتها من عدمها:

- هل ورثتموني حية؟

- ورثة الأحياء رضا ومحبة بينما ورثة الموتى حزن ووحدة، إلهي يطيل عمرك يا أختى، هكذا قالت الأخت الصغرى فاطمة.

- توقفي عن الفلسفة يا فاطمة، لا أحد سيأخذ شيئًا حتى أرى ما ينقصني، فلا أريد أن أحمل الوالد أعباءً أكثر، واطمئني سأعيش مائة عام على قلوبكم.

– العروس لا تتزوج سوى بالجديد، مالك والملابس المستعملة والأحذية المتهالكة.

– متهالكة! هذا الحذاء اشتريته منذ ثلاثة أشهر، كيف صار متهالكًا؟

– لا علاقة لي.. سآخذه.

هدى: الحمد لله لا أريد ملابس ولا أريد حذاء، فقط أريد الفراش، أريد أن أملك هذا الفراش وحدي، فطالما كنا شركاء فيه منذ ولدت، أخيرًا ستذهبين وأنام مستلقية عليه دون عتاب على طريقة نومي.

– أشعر وكأنكم تودعونني بلا عودة، أنا سأتزوج في القرية، لا تنسوا ذلك، كل الأمر بضعة كيلوات.

– لم يعد لكِ مكان يا حبيبتي.

– منزل المرأة هو منزل زوجها.

أيام تمر كأنها سنوات، زهراء لا تنام، أحلام مزعجة تراودها خوفًا من عدم إتمام الزواج، وتلك مشاعر طبيعية تجتاح الشباب والفتيات في فترة ما قبل الزواج بأيام قليلة، كل يخاف من مجهول، وكأن المصائب لن تأتي سوى على أقدام الفرح.

هذه طبيعة النفس البشرية كلما شعرت بالسعادة الشديدة وقرب الفوز بها، شعرت بالخوف الشديد من فقدان هذا الشيء الذي يمثل لها كل السعادة على ما تظن ذلك، فمن يدري ربما تبدو الأمور جيدة في العلن لكنها قد تحمل شرًا خلفها.

والد البنات يشعر ببعض الألم المعتاد لنوبات الكلى، فكثيرًا ما يستيقظ أهل المنزل على صرخاته المتكررة، لكن تلك الآلام وهذه الصرخات لم تكن أبدًا مانعًا عن أيّ شيء.

الأب والأم كعادة أهل القرية يشترون كل ما تحتاجه العروس استعدادًا لتجهيز منزلها حتى ولو كان ذلك بالدين، المهم ألا ينقصها شيء، فلا تكون أقل من زميلاتها، ومن هم في نفس عمرها من الأهل والأقارب.

رغم أن الأشياء مكلفة جدًا، إلا أن مجرد الشراء كان يضفي نوعًا من السعادة على تلك الأسرة المتوسطة الحال، فتلك هي الفتاة الكبرى وأول فرحة للعائلة.

تسير الأمور في خطواتها المعتادة، تُعلَّق الزينات، يأتي الجيران والأهل يباركون ويقدمون الهدايا لأهل العروس، الأوراق جميعها مكتملة لكتب الكتاب، من اليوم الذي يسبقه لم يبقَ سوى إمضاء

العروس في ذلك العرس المتوسط، وإشهارالزواج على أنغام الموسيقى الشعبية والغناء المتوارث.

- لا تخبري أحدًا، اذهبي وأكملي المهمة؟

ببكاء حار: كيف تستكمل بدونك! لا فرح اليوم، يؤجل حتى تتم الشفاء.

- لا يمكن أن يؤجل، لم يبقَ وقت، المأذون على وشك الحضور، هيا لا وقت، أسرعي.

- لا يمكنني، سأبقى بجوارك، كيف لي أن أتركك، لن أذهب!

- لأول مرة يا أم زهراء ترفضين لي طلبًا.

يحترق قلبها على كلمة تخرج من فمه، فكيف لها أن تكمل فرح ابنتها دون حضوره، فلا تعرف كيف تجيبه.

- لا وقت اذهبي.

- سأذهب، وأنهي الأمر سريعًا ثم أعود إليك.

- دعي البنت تفرح، لا تستعجلي شيئًا، سنلتقي مهما حدث.

تحتضنه الزوجة وتقبّل رأسه ويده، ثم تبادر لإحدى الممرضات بإعطائها بعض من النقود لتتم واجبها في رعايته على أكمل وجه حتى عودتها بعد ساعتين على الأكثر.

يلاحظ أحد الأطباء ما يدور حوله، فينادي عليها: يا امرأة! وقت الزيارة قد قرب على الانتهاء، فلا داعي لعودتك مرة أخرى.

- لا يمكن ألا أعود، أنا لن أزوره بل سأبقى معه.

- كيف لك بالبقاء في غرفة الرجال؟ اذهبي الآن، ويمكنك العودة في الصباح.

لا تكترث الزوجة لما تسمع من الطبيب: سأذهب وأعود بعد ساعتين.

تذهب المرأة مسرعة إلى المنزل، لتعلم بذهاب ابنتها إلى مركز التجميل للاستعداد للفرح.

تعود مسرعة إلى المشفى والتي توجد على بعد 10 كيلومترات من القرية، تركض إلى غرفة زوجها، الفراش خالٍ تمامًا، لا أحد على فراشه، تسأل عنه، يساق إليها خبر وفاته، تصرخ المرأة ليملأ صوتها أركان المكان، لا أحد يمكن له أن يوقفها أو يمنعها.

لم يحرِّك الأطباء ساكنًا، اعتادوا على ذلك الأمر، المرضى في فراشهم، فقط أقاربهم يخرجون من غرفهم لمعرفة الأمر، إنها حالة وفاة.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، عظَّم الله أجرك.

تسرع إليها إحدى النساء التى تقيم في المستشفى برفقة ابنتها لتأخذها بين ذراعيها لتبث فيها السلام والسكينة، تربت عليها، تقرأ عليها: (وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون).

ليأتي آخر يقترب منها : «إنك ميت وإنهم ميتون»، «وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله»، «كل نفس ذائقة الموت»، «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيدة».

أما هناك كان أحد المشايخ يبارك العرس ويتلو بعض من آيات الذكر الحكيم: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون»، «هن لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن»، «وعاشروهن بالمعروف».

يتبادل الأقارب التهنئة، بينما في المشفى يتبادل المرضى العزاء، يشرع المغسل في تغسيل الزوج، ومصفف الشعر يبدأ في غسل شعر العروس «زهراء»، يهيئها للعرس، بينما والدها هناك في المشفى يهيأ للدفن.

ترتدي الفتاة الفستان الأبيض، بينما والدها يرتدي الكفن الأبيض، المرأة توقع على تسلم الجثمان، والطبيب يوقِّع على

تصريح الدفن، بينما العروس توقِّع على عقد الزواج وعمها يوقِّع شاهدًا.

يرقص الأهل فرحًا، والزوجة تتمايل قهرًا وحزنًا، هنا في العرس تقبل التهاني والمباركات، وهناك في المشفى يقبل العزاء.

الفتاة تبحث عن أبيها، والمرأة تنعى زوجها، عين الفتاة لا تغادر باب دخول المعازيم، بينما عين الأم معلقة على باب المشرحة.

عرف العم بما حدث، أخبره أحد العاملين بالمستشفى بأمر الوفاة، ولم يرد أن يخبرأحدًا، أراد أن يكمل الزفاف رغم وفاة أخيه، هو يعلم جيدًا أن تلك وصية أخيه الأخيرة، ففي العشر دقائق التي تركت فيهم الزوجة المستشفى كان الأخ يودع أخاه، ليأمنه قبل موته على بناته ويستحلفه بالشهادة على عقد زواج ابنته دون أن يخطرها بشيء، وإن سألته فليخبرها بأنه علم بمرض جدك فذهب مسرعًا إليه فربما تكون تلك ساعته الأخيرة.

عند خروج العم من المستشفى أوقفه أحد العاملين بها؛ فهو صديقه منذ الطفولة، ليستفسر منه عن سبب قدومه إلى هنا، فيخبره عن أمر أخيه، فيطلب منه الذهاب لإتمام الفرح على أن يتابع معه أمر أخيه عبر الهاتف.

تلقى الخبر فور وصوله العرس، وقبل مجيء العروس، فكتم حزنه في قلبه، مبتسمًا للمدعوين رافضًا البوح بما حدث نزولًا على رغبة أخيه.

تأتي المرة مسرعةً إلى ابنتها تحتضنها وتباركها، فتسألها الفتاة عن سر اختفائها: أبدًا! كنت أعد الطعام لك وذهبت فأودعته في منزل الزوجية.

تبتسم الفتاة: الله لا يحرمني منكِ ولا من أبي يا أمي.

تبكي المرأة وهي تمسك بيد ابنتها، وكأنها تتحدث بيدها لا بلسانها.

لماذا البكاء يا أمي؟

دموع الفرح يا ابنتي.

أنتم دائمًا هكذا لا شيء يفرحكم، هكذا قالت فاطمة عندما رأت دموع والدتها، فهي قد اعتادت بكاء الأمهات عند زواج أبنائهم.

- أين أبي؟

- هناك بالخارج يستقبل الرجال.

- لكنني لم أره منذ بداية الفرح، كما لم يوقع على عقد زواج زهراء.

- لا تتوقفي عن الحديث أبدًا! هيا اذهبي وأعدي ما تبقى لأختك حتى تذهبا معها لمنزلها.

- وأنتِ؟

- كيف لي أن أترك الحضور يا ابنتي؟

- حسنًا يا أمي، وأبي هل يأتي معي؟

- نعم سيصل معك، لكن في سيارة أخرى.

تستعد العروس لمغادرة الفرح برفقة عريسها، تسير السيارة ببطء برفقة بعض السيارات محدثة الأصوات لإعلان الأفراح، وتخرج سيارة دفن الموتى من المستشفى تسير ببطء نتيجة الزحام الذي أحدثته سيارات الأفراح.

- افسحوا الطريق، الميت له حرمته.

يتخذ العروسان جانبًا من الطريق لتمر سيارة الموتى بجانب سيارة الزفاف، فتلقي الفتاة نظرة عليها: اللهم ارحم موتانا وموتى المسلمين.

تصمت الفتاة قليلًا تدعو لوالدها بطول العمر.

- هذا ليس وقت الحزن .. اليوم فرحنا يازهراء حياتي.

تصل سيارة دفن الموتى إلى المقابر، وتصل سيارة الزفاف إلى بيت الزوجية، يخلع الزوجان نعليهما لدخول المنزل، والرجال يخلعون نعالهم أمام مقبرة الرجل لإتمام عملية الدفن.

يصلي الرجال عليه قبل الدفن، فلم يكن هناك متسع من الوقت للصلاة عليه؛ فقد انتهت صلاة العشاء وأغلقت المساجد، ولم يكن هناك مكان سوى المقابر، تبدأ صلاة الجنازة، ويستأذن العريس عروسه لصلاة ركعتي الزواج: «اللهم إني أسالك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه».

وهناك أمام القبر: «اللهم ارحم غربته وارحم شيبته وانزل نورًا من نورك عليه، وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرًا من أهله».

كل يدعي على ليلاه، دعاء النهاية ودعاء البداية، فكل يسكن منزلًا جديدًا، والدها يسكن التراب وهي تسكن الزواج.

ينزل رجلان المقبرة، يرفعان الكفن عن جسد المتوفى، بينما يخلع الزوج الرداء عن زوجته، يوجه الرجلان رأس الميت في اتجاه القبلة، بينما يوجه العريس عروسه في اتجاه الفراش.

يبدأ المشيعون يُهيلون التراب عليه، يبعثرون التراب على جسده، ويبعثر الزوج قبلاته على جسد زوجته، يمسك أحدهم

بفأس ليدق على آخر حجر يوضع على المقبرة لتأمينها، بين يدق الرجل غشاء زوجته فيخترقه لتسيل الدماء بين فخذيها، وتسيل الدموع على وجه الأم لوداع زوجها الحبيب «أبوالبنات»، ليبدأ كل منهما رحلة جديدة مع عالم ينتظرهما.

تعود المرأة إلى منزلها تخبر فتياتها بكل ما حدث، الفرح تحوَّل إلى مأتم، السعادة تحولت إلى حزن شديد، الجميع علم بأمر الوفاة كما علم بأمر الفرح، وحدها العروس لم تعلم بأمر وفاة أبيها.

***

جريمة في محطة الأسرة

يقف الجميع احترامًا لهيبة الحكم، يجلس القضاة على المنصة، فيجلس الحاضرون في أماكنهم داخل قاعة المحكمة.

حكمت المحكمة حضوريًا على المتهمة خديجة عبد السلام بالسجن المؤبد خمسة وعشرين عامًا.

صراخ وعويل يرج أركان المكان.

لا.. أمي لم تقتل، أمي بريئة، أرجوكم، ليسمعني أحد، أمي بريئة.

هل ما فعلته كان صوابًا؟ وهل تستحق أختي السجن المؤبد؟ وهل تستحق تلك الأسرة هذا العذاب؟

أنا المسئول عن تشريدها، أنا السبب، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ كيف يمكنني الصمت على تلك الجريمة؟ هي قاتلة وكانت تستحق الإعدام وليس المؤبد فقط.

يا الله.. كيف لي أن أواجه أبناء أختي؟ كيف لي أن أواجه أهل القرية؟ سيهرب الجميع مني، لكني لن أفعل سوى الصواب.

الوجوه مسودة والقلوب ملأها السواد، إخوة نزعت من قلوبهم الرحمة، وأم فقدت معنى الأمومة، لا تشبعها صرخات الألم المكتومة التي تخرج من فم ابنتها المسكينة أمينة.

- أقسم لكِ لم أفعل شيئا يا أمي.

– أقسم لكِ كنت في الجامعة، ولم أذهب هنا أو هناك.

لا تسمع الأم ماتقوله ابنتها، فتتوالى عليها بالضرب ليل نهار بمساعدة أحد أبنائها موبخة إياها على تأخيرها.

سأموت من كثرة الضرب، معدتي تؤلمني يا أمي وعظمى يؤلمني كثيرًا، لم أعد أستطع.

تحاول أختها الكبرى أن تمنع عنها أذى والدتها وأخيها، لكنها لا تقوى عليهما، كما أنها بحكم زواجها وعدم إقامتها معهما في المنزل لا يمكن أن تدفع الأذى طوال الوقت، كما تعجز عن معرفة كل ما يدور في المنزل.

– أمينة يا أمي فتاة جيدة ويشهد لها الجميع بالاحترام، فلماذا كل هذا العذاب؟

– ما دخلك أنتِ في ذلك، لم أنجح في تربيتها، أتريدها أن تأتي لنا كل يوم برجل؟

– رجل؟!

– نعم كل يوم يتقدم لها أحد زملائها في الجامعة أو أحد أبناء القرية.

– وهل ذلك جرم اقترفته يا أمي؟

- من يدري ماذا يحدث بينها وبينهم، وماذا تقول لهم؟

- يا أمي مع احترامي لكِ، هذا دليل كاف على احترامها، وإلا لما أتى أحد إلى المنزل يطلب الزواج منها.

- لا، لقد جاؤوا طمعًا في أرضها.

- كل هؤلاء يطمعون في أرضها؟

اذهبي إلى زوجك ومنزلك، أنتِ لا تفهمين شيئًا.

تترك الأخت الكبرى المنزل، تودع أمها وأمينة، تستحلف أمها ألا تفعل لها شيئًا، فهي الوحيدة التي تشبه والدهما في كل شيء، في الشكل، الصفات، الطيبة وفي الحنان، ولا تستحق هذا العذاب..

تنظر إليها الأم دون أن تجيب.

تدخل أمينة غرفتها، تغلق عليها بابها، تجلس على مكتبها، تستكمل رواية قد شرعت في قراءتها، تحاول أن تنسى آلامها، لا تعلم لماذا تتعرض لكل هذه الإهانة، تتذكر والدها، تبكي فراقه، تتمنى أن يأتي لها في المنام ليطمئنها، تغلق الأنوار، تذهب للفراش، تنام، يستجيب الله لها، يأتيها والدها في المنام وهو يمد يدها له، تلبي النداء، تذهب حيث ذهب.

يا أهالي البلدة الكرام، ماتت أمينة بنت عبد الستار.

محمود يحمل جثة شقيقته ليواريها الثرى، الأم تبكي على فراق ابنتها التي لم تتجاوز العشرين من عمرها، القرية تودعها في جنازة مهيبة، الأم تستقبل العزاء عند المقابر بملابسها السوداء وعينيها الملتهبتين من كثرة البكاء، القرية حزينة جدًا.

يا الله.. ماتت أطيب أهل المنزل.. ماتت المسكينة دون أن يشعر أحد بها، ماتت دون أن تسجل اسمها في تاريخ الحياة، فهي لم تعش يومًا سعيدة منذ وفاة أبيها وهي في العاشرة من عمرها.. ابنة أبيها ماتت وتركت كل شيء.

لم يكن خال الفتاة وشقيق الأم الذى حضر العزاء عقب الدفن يتخيل أن تموت هذه الفتاة بكل سهولة هكذا، فقد كانت بصحة جيدة، التقى بها منذ يومين، لم تكن تشكو أيَّ شيء سوى والدتها وأخيها محمود!

- يا خال ابعدهم عني، أو خذني من هنا لأعيش معك.

يضحك الخال:

- غدًا تتركيننا جميعًا وتذهبين لمنزل العريس.

- أنا لا أريد الزواج يا خال، أريد أن أبقى في منزل والدي لكن دون أن يؤذيني أخي محمود.

- لا أحد يمكنه أن يقترب منك وأنا على قيد الحياة.

- يا خال أنت تسافر كثيرًا بحكم تجارتك، ودائمًا ما أقابلك بالصدفة.

- لا تقلقي، أنا دائمًا موجود لأجلك.

تحتضنه الفتاة بقوة: من يصدق أنك أخ لأمي؟!

يبتسم الخال: عيب يا بنت.. هي أمك.

- نعم.. هي أختك.

يضحكان معًا، يتناولان الغذاء أمام الجامعة، يأخذها إلى منزلها، يودعها على وعد بلقاء قريب، ولايعرف أنه اللقاء الأخير.

شعر الخال بغصة في قلبه، ونداء سيطر على عقله، وتساؤلات لم يجد لها إجابة، لدرجة أنه شعر أن الوفاة لم تكن طبيعية، فلا يمكنه تصديق أن الفتاة ماتت بسلام دون تدخّل من أحد، هناك شيء غامض بالنسبة له، فالأسرة كانت دائمًا ما تعنِّف الفتاة وتحاول تصويرها أمام أهل القرية على أنها مريضةٌ نفسيًا على غير الحقيقة، فلماذا كانت تصر الأم ومحمود على تصدير تلك الصورة، حتى وإن كانت الفتاة مريضة بمرض نفسي، فالأم من المفترض أن تكون أول من يخفي ذلك الأمر على الجميع حفاظًا على ابنتها وحالتها النفسية وقطع ألسنة من يحاول الحديث عنها بسوء.

لم يستطع الخال أن ينام في تلك الليلة، شعر أن الفتاة تستغيث به رغم دفنها، قضى ليلة حزينة شديدة الصعوبة تراوده شكوك حول وفاتها، لايعرف ماذا يفعل ومن يسأل، في النهاية هذه ابنة أخته.

لم ينتظر الخال حتى العودة من عمله، ذهب مسرعًا إلى أقرب قسم شرطة قبل الذهاب لعمله ومتابعة أمور تجارته ليبلغ عن شكوكه راجيًا الله أن يخيب ظنه، وأن يقف الأمر عند حد الشكوك.

النيابة تفتح التحقيق، تراجع تقرير مفتش الصحة الذى وجد به إقرار من الأم بأن الوفاة طبيعية.

النيابة تسأل مفتش الصحة عن سبب الوفاة، طبيب الصحة يقرر أن الفتاة كان بها إصابات بالرقبة إلا أن أسرة الفتاة قررت بأنها مريضة نفسيًا وكانت تعاني من الصرع ليأتي قرار النيابة باستخراج الجثة وتشريحها.

يمر يومان على طلب تشريح الجثة، لا أحد يعلم ما أقدم عليه الخال، فتفتح المقبرة في الليل والجميع نيام، والخال لم يخطر أحدًا بما فعله.

يأتي تقرير الطب الشرعي الذي يؤكد أن سبب الوفاة هو الخنق وأن الفتاة لم تمت بشكل طبيعي.

- يا الله.. يا الله!

صدمة شديدة عصفت بقلبه، لم يتوقف عن البكاء، بل لم يبكِ على وفاتها كما بكى الآن على تقرير الوفاة.

- مسكينة.. ماتت مقتولة!

رحمتك يا رب.

النيابة تواجه الأم بتقرير الطب الشرعي، تنكشف المفاجأة، تنهار الأم وتبكي، تسقط الأم مغشيًا عليها، تفيق، تعترف بقتل ابنتها من خلال خنقها.

يسألها وكيل النيابة عن سبب قتلها:

مات زوجي منذ عشرة أعوام، وترك لي ثلاث بنات أصغرهن أمينة المجني عليها وولدين الأكبر هو محمود، وليلة الحادث عادت من الخارج متأخرة، فقام شقيقها الأكبر محمود بتعنيفها والاعتداء عليها بالضرب، وعندما استيقظت من النوم فى منتصف الليل وجدتها نائمة فقمت بخنقها حتى فارقت الحياة، فلم أستطع سماع ما يقال عنها على ألسنة أهل القرية بسبب علاقتها الكثيرة بالشباب، وتأخُّرها المستمر طوال الليل، فأردت أن أستر عرض زوجي بعد وفاته.

أنكر الأبناء معرفتهم بسبب موتها، لكن الابن الأكبر محمود أكد أن أخته جلبت عليهم العار، فلا تعود سوى في ساعات متأخرة من الليل وهو ما أغضبه وجعله يعتدي عليها بالضرب، ثم خلد إلى النوم لكنه لا يعلم شيئًا عن كيفية وفاتها، فهي مريضة نفسيًا، وربما ماتت بشكل طبيعي أو خنقت نفسها.

خال الفتاة لم يسترح لما سمعه، وأخبر النيابة خلال التحقيقات أن والد الفتاة توفي وترك قطعة أرض كانت من نصيب الفتاة مساحتها ستة قراريط، وأن هذه الأرض أصبحت الآن أرضا للبناء وقيمتها المالية كبيرة بعد أن كانت أرضًا زراعية.

- وماذا عن حالتها العقلية والصحية؟

- أمينة كانت طبيعية ولم تكن تعاني من الصرع أو أي مرض نفسي وأن عددًا كبيرًا من الشباب تقدموا لخطبتها إلا أن الأم وأشقاءها كانوا دائمًا يرفضون ويعتدون عليها بالضرب لرغبتهم فى الاستيلاء على ميراثها.

يخرج الخال من غرفة النيابة ليجد أخته قد أعطت له ظهرها لا تريد مجرد رؤيته، بينما الولدان والفتاتان لم يتحدثوا إليه وكأنه ليس هناك سابق معرفة أو بينهما قرابة من بعيد أو قريب.

لم يتعجب الخال مما رأى ما عليه الجميع، لكنه أصر على موقفه.

جاءت تحريات المباحث الجنائية لتؤكد حسن سلوك الفتاة وأنها كانت تخرج من المنزل هربًا من سوء معاملة الأسرة والأم لها، لكنها كانت تعود في نفس اليوم.

توجه النيابة بعدها تهمة القتل العمد للأم ولشقيقها محمود وتهمة عدم الإبلاغ عن الجريمة للشقيق الأصغر والشقيقتين.

المشهد مهيب، الأم تبكي داخل قفص الاتهام، تصرخ لهيئة المحكمة:

- أريد التحدث!

ليسمحوا لها فتبكي بحرقة وقلب مفطور:

- أنا معترفة، أنا قتلتها وخسرت ابنتي، أنا من ارتكبت الجريمة وقتلتها، محمود ابني الكبير ليس له يد في الأمر، أنا فعلت ذلك.

تنظر الأم إلى أبنائها متحدثة إلى القاضي:

- ياسيدي القاضي لا ذنب لأبنائي، أنا القاتلة، خسرت ابنتي ولن أخسر باقي أبنائي.

يصمت أبناؤها إلا أن واحدة من بناتها تحاول التحدث فما كان من الأم إلا أن وضعت يدها على فمها:

– أنا التي قتلت.

تقضي المحكمة ببراءة الشقيق الأكبر محمود من تهمة الاشتراك فى القتل لاعتراف الأم وبراءة الشقيق الأصغر والفتاتين من تهمة عدم الإبلاغ عن الجريمة، حيث إن أحد مواد القانون تعفي الزوج والزوجة والأبناء من عقوبة الإبلاغ عن جريمة ارتكبها أحد الأقارب من الدرجة الأولى ليخرج الأبناء من قفص الاتهام، وتذهب الأم إلى غياهب السجن لتقضي ما تبقّى من عمرها حسرة على ما اقترفت يدها بقتل ابنتها.

تبكي الأم، ولا تعلم بالتحديد لماذا تبكي؟ هل تبكي على جريمتها أم على اكتشاف أمرها؟ هل تبكي على دخولها السجن؟ أم على اعتراف أخيها عليها؟ وهل يظل وجه ابنتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة عالقة في ذهنها ويدمي قلبها؟ وهل يشعرها السجن بتجردها من مشاعر الرحمة؟ لكن يظل السؤال رغم حكم المحكمة بالمؤبد على الأم: من القاتل؟ هل حقًا الأم من قتلت؟ أم الابن الأكبر من قتل؟ أم أن الاثنين اشتركا في القتل؟ وهل كان للأخت غير المتزوجة، والتي كانت معهم في المنزل، دخل أيضًا في الجريمة؟ وأين كانت الأخت الكبرى آنذاك؟ وهل حقًا كانت

تعلم ما اقترفته أمها؟ وهل كانت تشعر بخطورة تهددها؟ وإن كانت تشعربذلك فلماذا لم تدافع عن أختها؟

ينظر خال الفتاة إلى شقيقته خلف القضبان وإلى أبنائها وهم يخرجون من القفص، وهو يسأل نفسه: هل كان على حق عندما أبلغ عن شقيقته وكان سببًا في دخولها السجن لتتفكك تلك العائلة بين الموت والسجن؟ وهل يمكن لأم أن يعميها الحقد والمال عن أمومتها؟ هل تستحق لقب أم!!

ليلة حمراء

رجل يعمل بمجال التجارة، يملك دكانًا صغيرًا بدائيًا بوسط القرية، يعمل فيه أحد أبناء عمومته، يتزوج من ابنة عمه وينجب خمسة أبناء يعيشون بين أعمامهم وأخوالهم طوال فترة الطفولة، لا يغادرون القرية أبدًا.

ينتقل من مدينة لأخرى، لا يشغله شيء سوى عمله وتجارته وإسعاد أبنائه وزوجته، وشراء ما يحتاجه دكانه الذي يعج بكل الخيرات التي يأتي بها من تجارته الواسعة في بلاد ومدن بعيدة.

يحب دائمًا أن يتاجر فيما هو غير موجود في القرية أو حتى المدينة المجاورة، يحب أن يجلب ما هو غير متاح، أو في المواد التي يصعب إيجادها بسهولة، حتى يشعر أنه مميز جدًا، يأتي الجميع إلى دكانه، فذلك كان يضفي عليه نوعًا من السعادة والرضا والثراء الشديد.

السنون تمر، والأبناء يكبرون ويجب التحاقهم بالمدرسة، وما كان من الأم إلا أن ترضخ لرغبة الأب والأهل في إلحاقهم بالمدرسة، رغم أنها دخلت في صراع شديدٍ خوفًا من أن يلحق بهم أذى، فذلك كان معتقدها خاصة، وأنها وحدها من أقاربها من أنجبت خمسة صبية على عكس من رزقت بالبنات فقط أو من لم ترزق بالأبناء أو من لديها ولد واحد.

الأم تعلم أن الجميع يحب أبناءها، لكنها لا تأمن مكر الشيطان، وتدابير البشر وخبايا النفس، فعملت كل ما استطاعت لحمايتهم.

حرص الوالد على اصطحاب أحد أبنائه كل رحلة، ليتعرف على طبيعة عمله، ويكون خليفة عن أصدقاء والده.

الأم دومًا ترفض فكرة سفر أبنائها مع والدهم خوفًا عليهم من المشقة وطول الطريق.

الوسائل المستخدمة في ذلك الوقت بدائية جدًا، من جمال وخيل، في التنقل بين مناطق تلك البلاد، إنها بداية الثلاثينيات من القرن الماضي.

والدهم يخرج في رحلته التي قد تستغرق شهرًا ونصف الشهر ذهابًا وإيابًا، ففي كل رحلة له تكون هنالك أحداث كثيرة قد تغيرت بالقرية الواقع على مقربة من نهر القاش.

تشكل الغابات مناظر خلابة ومعظم سكان القرية يعملون بالزراعة، وللثروة الحيوانية مكانة بين السكان.

يتجول التاجر طوال مدة سفره، وهنا بقريته من ينتظره بشغف يستفسر عن رحلته، ويأتي التاجر محملا ببضائع متنوعة حسب حاجة أهل القرية من ملابس رجالية ونسائية، ومصنوعات جلدية، وأحذية، وبعض المصنوعات البدائية من السعف.

وهنا من يقوم بتجميع السمن له لأنه المنتج الطبيعي لما تملكه القرية من ثروة حيوانية، وكذلك العسل الطبيعي الذي تجود به غابات القاش.

الدكان مركز تحرك الرجل، سكان القرية يلتفون حوله في كل عودة له، يسألونه عن المناطق المجاورة التي زارها، يستفسرون منه عن مجريات الحرب التي تدور رحاها في شتي بقاع الكون.

أبناؤه يجلسون حوله في تواضع جم، وشوق للوالد، العمدة أول من يقابله لأن منزل العمدة في الناحية الغربية للقرية.

- هل ذهبت إلى أغردات؟

- نعم.

العمدة يسأل:

- كيف وجدت الأهل هناك؟

- بألف خير.

- كيف الموسم الزراعي؟

- يقولون مبشر.

- هل زرت خالك العمدة باغردات؟

- نعم، ومكثت معه يومين، ووقفت على دار العز والشموخ ونقابة القرآن بضواحي أغردات عند سيدنا مصطفى.

- يا سلام! كم أنت موفق! لي عامان لم أزرهم يا أخي.

وفي كل رحلة ترفض والدتهم فكرة سفر أيّ من أبنائها مع والدهم، لكن الوالد يصر مع تطور تجارته، وبلوغها بعض المدن بالمرتفعات الإريترية.

نوَّع الوالد تجارته وأدخل أشياء جديدة من بن وشاي وسكر، والفلافل بأنواعها، وبدوره ينقل من مناطق القاش وبركة ما تجود به المنطقة من خيرات، وفي إحدي زياراته إلى المرتفعات الإريترية، وتحديدًا إقليم الحماسين وعاصمته أسمرا العاصمة الإريترية لاحقًا.

وفي إحدي ضواحي منطقة الحماسين بمنطقة أمباديرهوا التي تقع على مقربة من عاصمة الإقليم، تعرف على امرأة تعمل بتجارة الخضروات والمنتجات الزراعية التي تتميز بها هذه القرية، وللمرأة متجر مسائي يبيع بعض المنتجات التي تشكل موردًا أساسيًا للسكان، وخمورًا يتعاطاها بعض السكان.

يمثل متجر هذه المرأة ملتقى سكان المنطقة، ففيه تجد الشباب يجلسون في الأطراف بعيدًا عن أنظار الشياب، يحتسون كميات

من الخمر بأنواعها البلدي محلي الصنع والإفرنجي المستورد أو القادم من العاصمة أسمرا.

هنالك شياب في العقد السادس والسابع يتبادلون أطراف الحديث عن أحوال البلد والتطورات التي بدأت تظهر من عمران للمباني فيه سكان المنطقة.

المتجر عبارة عن نادٍ يجتمع فيه سكان المنطقة، هنالك مجموعة من الفتيات يعملن بهذا المتجر في الفترة المسائية، طويلات القامة نحيلات الأجسام ذوات لمحات جمالية، فاتنات يجدن فن التعامل مع كل ضيف أو زبون قادم، البسمة تعلو وجوههن، وسمرة اللون تعطيهن بعدًا جماليًا.

صاحبة المتجر اختارتهن بعناية فائقة، متواضعات، تنظر إلى إحداهن فكأنك تعرفها من وقت بعيد، من الصعوبة أن تميز بأنك قابلت أيهن، فكلهن في الصفات متقاربات، وملامحهن واحدة كأنهن توأم، تنادي أليس مرهاويت تأتيك لوام وتتعرف غدًا على يؤديت، إذ هن نفس الملامح والصفات!

بدأ التاجر يتردد على أمباديرهوا بائعًا ومشتريًا، وصاحبة المتجر تواعده في الفترة المسائية، فيأتيها إلى المتجر، لا يستطيع

الدخول يتوقف وينتظر خروج أحد العملاء، فيطلب منه أن ينادي على صاحبة المتجر، فتخرج عليه ضاحكة:

- مالك يا صديق المهنة لا تدخل المتجر؟!

- إنني أرتدي ثوبًا يمثل قوميات، وعيب عليَّ أن أدخل مكانًا مثل هذا به اختلاط.

- إذا أنا سوف أجهز لك ثيابًا تشابه مايلبسه سكان البلد، وحينها ستعجبك الثياب والمكان.

- لا بأس إن شاء الله في رحلتي القادمة، سأجلس معكِ داخل المتجر، وسأرى ما بداخله.

يعود التاجر ذو القامة الطويلة والملابس التقليدية إلى منطقة القاش وبركة بعد رحلة طويلة وشاقة يلتقي الأهل والأقارب يعرض لهم ما أقبل على شرائه كعادته، يرسم البسمة على وجوههم.

أطفاله يلتفون حوله في منظر طفولي، وزوجته هي الأخرى في شوق مستفسرة عن رحلته.

زوجته لم ترتح أبدًا حينما علمت أنه وسع تجارته وأصبح يجوب مناطق أخرى بعيدة جدًا عن منطقته، وأصبحت ترجوه أن يتوقف عن هذه الأعمال التجارية التي تبعده عن أسرته ومجتمعه، لكنه لا يقتنع برأيها.

ينتظر الليل ليختلس الجلوس مع زوجته، تسأله عن النساء اللواتي شاهدهن طوال رحلته، يبتسم لها ويحتضنها:

- لا أرى من النساء سواك.

- بل لا تجرؤ على رؤية غيري.

وهكذا تمر الأيام مسرعة ويتنظر الرجل العودة للمرتفعات مرة أخرى.

التاجر بدأ يفكر في الدخول في تجربة جديدة يمني نفسه بالعودة إلى المرتفعات حيث كل شي مختلف عن محيطه، وبدأ يتعلم لهجة أخرى غير التي يتحدث بها أهله ومجتمعه، وفي بعض الأحيان يخطيء الحديث فيرد عليهم بلهجة المرتفعات وسرعان ما يتذكر ويعتذر.

يعود التاجر إلى المرتفعات وفي عينيه ألف سؤال، بل يفكر أن يشتري له منزلًا ويتزوج من إحدى فتيات تلك المنطقة الجغرافية التي تتميز باعتدال مناخها طول العام.

تعلم صاحبة المتجر بموعد عودته، تعد له الحيل وتقوم بحث كل العاملات معها على ضرورة كسب ود هذا العميل.

كل الفتيات في استعداد تام لاستقبال الضيف، تقابله صاحبة المتجر في تلك الأمسية الماطرة شديدة البرودة، تقدم له بنطلونًا وقميصًا وبالطو من الصوف.

يخلع التاجر ملابسه التقليدية ويرتدي ما قدِّم له، تخبر صاحبة المتجر كل العاملات بمتجرها أن ضيفها قد وصل، ولابدَّ من استخدام كل المغريات له، ارتدين ما قصر من الثياب، استخدمن كل ما يملكن من ملكات خطابية.

دخل التاجر إلى المتجر، قوبل بكل ترحاب، هذه تجلس بيمينه وتلك بيساره، والثالثة تقدم له كل أنواع المشروبات.

يسأل: ماذا يوجد لديكم من مشروبات؟

– لدينا كل ما تريد.

تأتي صاحبة المتجر: أنت ضيف اليوم بيننا.

تقدم له الوجبة من الزغني أشهر أطباق المنطقة، تطلب الشاي، والقهوة التي تستخدم هنا بطقوس غير تلك التي يجدها في منطقته.

فهنا الجلسة غير هناك، والبخور بأنواعها، وطاولة القهوة المصنوعة من الخشب والمزينة بالزجاج به رسومات متنوعة.

يسأل التاجر عن كل شيء فتقدم له الإجابة.

إنه مكان غريب عليه جذب انتباهه، وجعله يفكر في كل من حوله: حقا إنها المرتفعات.

يبتهج التاجر ويقضي أمسية جميلة بل رائعة، وبعد منتصف الليل يعود مبتهجًا إلى غرفته التي كان قد استأجرها من أحد سكانالقرية.

شرب القهوة بكل طقوسها، وتناول بعض الكاسات من المشروبات الأخرى التي لم يتناولها من قبل ودخل في نوم عميق، في الصباح يتأخر في النوم بل لم يصل صبح تلك الليلة وربما عشاء الأمس، لا يتذكر.

يقوم من نومه يكسوه الكسل والفتور الذي انتاب جميع جسده، وهنالك رائحة الكحول تصدر من فمه، تأخر في الخروج من بيته هذا اليوم على غير عادته، فكان في السابق يصلي الصبح حاضرًا، ومن ثَمَّ يذهب إلى مطعم حرقوت صديقه ويتناول وجبة إفطاره، ثم يجلس مع حرقوت وبعض الأصدقاء يتبادلون أطراف الحديث.

بالأمس كان معهم صباحًا واليوم تأخر عن الموعد، حرقوت يخرج من مطعمه صوب المنزل، يطرق الباب الكبير للمنزل، تخرج زوجة مستأجر المنزل، يسلم عليها، ترد له التحية.

يسألها: أين غرفة عمار البركاوي؟

– هذه التي على يسار المنزل.

يذهب إلى الباب ويطرقه طرقة أولى وثانية وثالثة، دون جدوى فصديقه في نوم عميق، ما بين أحلام يقظة وأحلام حقيقة، لا يستطيع أن ينهض من فراشه.

- اكسر الباب صديقي حرقوت.

- ماذا أصابك صديقي؟

- بالأمس ساهرت يرد باللهجة المحلية التي لا يجيدها جيدًا.

حرقوت يكسر الباب، ويدخل يجد صديقه في منظر لا يصدقه، مبتل الملابس، شاحب الوجه، روائح هنا وهنالك.

يقول حرقوت: مالك وهذه المشروبات التي لا تشبهك فأنت تربيت على شرب اللبن لا الخمر.

يضحك عمار: أمسية جميلة وفي مكان رائع ويشرح له المعاملة وطريقة الترتيبات التي أجريت له.

يضحك حرقوت من أجل مالك يفعل لك كل شيء، يقوم حرقوت بمساعدة صديقه وينظر إلى ثيابه فيجده قد ارتدى ملابس أهل المنطقة، يذهبون معًا إلى المطعم ويقدم له وجبة الإفطار، ويدخل معه في حديث جانبي عن أمسية الأمس، يقدم له نصيحة بضرورة العودة إلى منطقته، وأن ينهي هذه التجارة التي قد تضره،

وتطال سمعته وتجعله عرضة للابتزاز، خاصة أنه قادم من منطقة محافظة جدًا في عاداتها وتقاليدها، تختلف شكلًا ومضمونًا عن هذه المنطقة، يصغي التاجر إلى حديث صديقه جيدًا، ويمضي ليلة أخرى من الليالي الحمراء، تتنوع فيها الرغبات، ويقضي أيامًا مع إحدى العاملات بالمتجر، وصاحبة المتجر تستفسر عن التاجر عمار ومنطقته واسمه بالكامل، قبيلته التي ينتمي إليها قريته لأنها ببساطة بدأت تشك أن إحدى العاملات قد تكون حملت منه طفلًا بطريقة غير شرعية، وذلك لانقطاع الحيض عنها.

يخرج التاجر من القرية بعد أن أمضى أيامًا جميلة تتخللها الأمسيات الحمراء، وجلسات السمر، ويعود إلى حيث أسرته، حيث أطفاله وزوجته ومراتع الصبا، وأبناء الأعمام، والحاضنة الاجتماعية، ويشرح لأحد أبناء عمه بأنه قد قضى أيامًا مع إحدى الفتيات تدعى ويني تعمل بمتجر وأنها ربما حملت منه.

أبناؤه، عبدالله وعبد الرحمن وعثمان ورمضان وإدريس، تتفاوت أعمارهم؛ فأكبرهم بلغ السادسة عشرة من العمر.

يمرض التاجر مرضًا شديدًا، يلتف أبناؤه حوله وزوجته وأبناء العمومة بل كل قريته صباحًا ومساءً يتفقدون التاجر، وهنالك

بالمرتفعات ينتظرون قدومه فقد أنجبت تلك الفتاة طفلًا ذكرًا تنتظر أن يسميه والده، يذهبون إلى صديقه حرقوت فيقول لهم أطلقوا عليه اسم سليمان.

يقوم التاجر من مرضه ويقرر الذهاب إلى أمباديرهوا حيث صديقه، وليتابع نتائج تلك الأمسيات، بل يمني النفس أن تكون مرت على خير دون إنجاب، فأي طفل يصبح عبئا عليه لكونه ولد بطريقة غير شرعية، وهذا مرفوض عند أهله، وسيكون وصمةَ عار له، يأتي في تلك الأمسية الشتوية شديدة البرودة إلى مطعم صاحبه حرقوت، فيدخل المطعم ولا يجده، يلتفت يمينًا ويسارًا ولم يجده، يتوجه بسؤاله إلى إحدى نادلات الطعام: أين حرقوت؟

ترد عليه: لقد توفي قبل شهور!

- يا الله! كيف الحل؟

يذهب مجبرًا إلى المتجر فيجد صديقته صاحبة المتجر هي الأخرى قد غادرت إلى ديارها، وهنا عرف أنها من وراء الحدود فلم تكن بنت البلد، وكذلك معظم العاملات من خارج الوطن، ولكن لم يجد سوى رسالة كانت قد تركتها له صاحبة المتجر، وأوصت بإعطائها لها متى ما جاء إلى المتجر.

مضمون الرسالة أن لك ابن من يوديت وسوف يأتي إليك بعد أن يكبر وأنا ومن معي من العاملات غادرنا إلى وطننا، وعنوانك بطرف يوديت، لا تقلق فأطلقنا عليه اسم سليمان.

يهرول الرجل تاركًا خلفه المتجر.

- يا للفضيحة ماذا أفعل؟

- حرقوت صديقي ليتني سمعت نصيحتك، وليتني عملت بها.

كانت صاحبة المتجر تسألني عن كل صغيرة وكبيرة في حياتي وكنت أجيبها بصدق.

- يا للغباء!

يعود التاجر إلى قريته وفي عينيه ألف سؤال: ماذا يفعل؟

ويواصل حياته بكل هدوء، بل بدأ يشرح للمقربين منه بأن لديه طفلًا ربما يأتي، وأن اسمه سليمان، وأن والدته يوديت.

تمضي السنون تتابع وينتقل التاجر إلى رحمة مولاه.

يأتي العمدة وبعض رفاق التاجر ويقولون إن للتاجر ابنًا يدعى سليمان، الزوجة ترفض: لم يخبرني بذلك، الأبناء ينقسمون فيما بينهم، فكبيرهم عبد الله متمرد وضاغط ومتفرد بكل شيء، وللأسف لم ينل حظه من التعليم، وبقية الإخوان يفضلون أن

يتقاسموا مع أخيهم سليمان لعلهم يخلصهم من دكتاتورية عبد الله، بينما هم في هذه الأوضاع يذهب العمدة يجوب المرتفعات كي يجد سليمان، لم يجده ولكن يعرف أنه مع أخواله خارج الحدود، يرسل لهم مندوبًا فتأتي أمه ومعها سليمان.

الطفل هادي الطباع قليل الكلام مستمع، عكس أخيهم الكبير عبد الله تمامًا، بقية الإخوة يلتفون حوله، أمه تتركه مع إخوته، فتذهب إلى أهلها، أخوته يقدمون له المساعدة من أجل أن يتلقى العلم، فيكمل دراسته، ثم يعود إلى إخوته، ويدرس أوضاعهم، يتقرب من عثمان ويكثر الجلوس بينهم، ويتبادل الحديث.

سليمان لا تظهر عليه أي علامة رضاء كانت أم غضب، كاتم السر، خافض الصوت، يقلب دفاتره، وبقية الإخوة كل يفكر في حاله، يقترح عثمان أن يقتسموا تركة الوالد ويعرف كل نصيبه.

عبدالله يرفض، لأنه يريد أن يكون مسيطرًا والجميع تحت إدارته.

عثمان يدخل في صراع مع عبدالله أخيه وشقيقه، سليمان يتفرج ولا يبدي أي ملاحظة، فقط عرف أن أخوته لايتفقون ولن يتفقوا، وأن الاستمرار معهم صعب جدًا، بل لا بد من البحث عن مخرج آمن له.

عثمان يؤكد لسليمان ويقدم له كل أنواع المساعدة في سبيل التخلص مندكتاتورية أخيهم عبد الله.

عبد الله يرفض جميع الأصوات التي تطالب بإعطاء أخوته حقوقهم والجلوس معهم، يطرد هذا، يضرب ذاك، يهدد بالقتل، يحب السيطرة متسلط من نوع آخر، يتشتتون كل إلى سبيله ويصبح عبدالله هو المسيطر، عثمان وسليمان يتحدان ويحاولان ضبط الأمر دون جدوى، الباقون يهربون كل إلى سبيله.

تمضي الأيام وعبد الله يدعوهم إلى اللقاء، يجتمعون ولكن عثمان وسليمان يرفضان، يتخوفون من أخيهم ربما يغدر بهم، يتململان من مكان إلى آخر وشبح عبد الله يطاردهم.

سليمان يستقوي بأخواله ويجمع أهل أمه، ويقضي على عثمان بفك الارتباط منه، يظل عثمان وحيدًا فيتجه إلى تعليم أبناء المنطقة وتقديم ما يستطيع من مساعدات، يتفرج على أخويه سليمان وعبد الله.

سليمان يتقدم ومعه كل أبناء أخواله وخالاته، ويخرج أخوه عبد الله ومن معهم من أبناء عمومته من قريتهم إلى خارج الديار، يسيطر على كل الأملاك، ينفرد بكل الثروات، يبطش بقوة مفرطة لكل من يحاول الاقتراب منه، تظهر صورته الحقيقية، يمنح أبناء خالته وخلانه الأولوية على أخوته وأبناء عمومته.

عبد الله يلتقي بعثمان يتبادلون الاتهام:

- أنت السبب.

كل يلقي اللوم على الآخر، لكن بعد فوات الأوان.

الآن يريدون أن يتحققوا من إثبات نسبه، إنها غلطة الوالد، كلفتهم كل شيء حتى أمهم لم تسلم من ضربات سليمان، فما عاد يحترم أحدًا، سيطر على كل ما يريد وبكل سهولة بعد أن استفاد من أخطاء أخوته.. ليتهم يتدبرون!

***

مجموعة الطوابير

هذه المجموعة الطلابية لا يجمع بينها أي رابط. فقط تعرفوا على بعضهم من خلال السنة الأولى، منهم من أبناء الخرطوم والجزيرة والنيل الأبيض. تمتاز هذه المجموعة دون غيرها بالمشاكسة اللطيفة، من ينظر إليهم يعتقد أنهم متفقون في كل شيء، إلا أن الحقيقة عكس ذلك تمامًا؛ فكلّ واحدٍ له موقف من الآخر، لكن روح الدعابة والمشاكسة صنعت منهم هذا الاتحاد اللافت للانتباه.

هناك من يطلق عليهم مجموعة تخسرون، هنالك بعض الطالبات ضمن هذه المجموعة، ولكن ليس لهن أي دور يقمن به سوى الاستماع للأحداث التي يروونها بين الحين والآخر، تحاول مجموعات أخرى غزوها من كل صوب، إما أن تنضم إليهم ولو مؤقتاً أو ستتبعثر، وتحتاج إلى إعادة تكوين وتجميع. في مرحلة التخصصات، ذهبت بكامل ثقلها لى قسم المحاسبة، وذهب بعض المتمردين والمتمردات إلى تخصصات أخرى، ومع ذلك ظلت المجموعة ذات تأثير على بقية الدفعة.

امتازوا بالمكر والدهاء العاليين في سبيل زعزعة بقية الطلاب، فمثلًا قائد المجموعة يفكر في مكيدة مستفيدًا من شخصيته الهادئة وسيطرته على هذه المجموعة المثيرة للجدل. في أحد

استهدافاتهم المتكررة، استهدفوا علاقة حميمة بين طالب وطالبة قوامها الاحترام بين الطرفين، وهناك شبه اتفاق بينهم بأن علاقتهم لن تستمر فاكتفيا بالاحترام.

اجتهدت مجموعة الطوابير وحركت كل قواها بهدف ضرب هذه العلاقة ذت الطابع الأخوي؛ فما كان منهم لا أن استدرجوا الطالب الذي لا يعرف عن خباياهم شيئًا، وقدَّم له زعيم الطوابير دعوة لتناول وجبة الإطار بدعوى التعارف.

عجيب أن وصلنا نهاية العام الدراسي وليس بيننا أيّ لقاء

الطالب: حقيقة أعوام مضت، ولكن -إن شاء الله- في ما تبقى من وقت نجتمع وعلى خير..

وبدأ يتقرب منهم شيئًا فشيئًا، والطالبة هي الأخرى دخلت دائرة اهتمامهم؛ فما كان من أحد الطوابير إلا أن رسم حرف الطالب - أي زميل تلك الطالبة في دفترها بخط أقرب ما يكون إلى خط الطالب- وبعد مرور ثلاثة أيام، روّجوا مقولة أن هذه الطالبة مقلوب على أمرها من شدة حبها لزميلها، وأصبحت تكتب حرفه الأول في دفترها بالرغم من أن هذا الطالب قد صرح لهم بأنه وضعه العائلي لا يسمح له الارتباط بأي فتاة؛ فعليه مسؤوليات

وواجبات نحو أسرته.. وكان هذا التصريح في جلسة مع الطوابير، وبحضور زميلته التي لم تعلِّق بل ظلت صامتة، بل مندهشة من هذا التصريح ومن ورائه!

تسأل الطالبة صديقها:

ما الذي دفعك للتحدث بهذا الأسلوب؟

الطالب:

ليس لي هدف محدد ولكن مجموعة الطوابير دومًا مصدر إزعاج للدفعة، فقط أريد أن أحسم هذا الملف الشخصي.. ثم يسألها:

لماذا وجهتي لي هذا السؤال أليس من واجبي أن أسأل.

الطالبة:

نعم!

واجبي أن أقول لك إن الأشياء الخاصة بل تحسمها بينك وبين نفسك؛ فهذا قرار شخصي وأعتذر منك إن أخطأت التقدير.

الطالب:

ليس بيننا اعتذار!

وفي الاسبوع الذي يلي هذا اللقاء انتشر خبر العلاقة بين الطالبة والطالب، وكيف روجوا له بل ظل البعض يتحدث بلسان

حال الطالب أنه رفضها من حيث مبدأ الزواج، وكيف هي -أي الطالبة- متمسكة به لدرجة الولهان! بلغ الخبر إلى الطالبة بواسطة إحدى زميلاتها في الدفعة بأن هنالك حديث يدور حولك..

أريد أن أعرف مدى صحته تفضلي وأنا أما أؤكد لك الحديث أو أرفضه ولكن دون أي زعل زميلتها تسأل:

هل أنتِ مغرمة لهذه الدرجة بزميلك فلان؟

لا أعتقد أن بيننا شيء سوى الاحترام، وفلان هذا رجل طيب بشهادة طلاب وطالبات الدفعة.

طيب لماذا تضعي حرفه على دفترك في قلب؟

لم يحدث هذا وأعتقد أنني لست مراهقة حتى أقوم بعمل كهذا؛ إنه أسلوب المراهقين.

طيب افتحي دفاترك وستجدين ما أقول وتقوم الطالبة بفحص دفاترها وتجد العبارة بل عدة عبارات أخرى تدل على أنها مغرمة به وتفدي في سبيله الغالي والنفيس؛ فغضبت الطالبة من زميلها دون أن تدري بالأمر، وهاجمته بأصعب الكلمات قساوة..

ولكن الطالب كان كعادته هادئًا منضبطًا جدًا، وعمل على امتصاص غضبها دون جدوى، وانقطعت العلاقة الحميمة بين

الطرفين، وتمكن الطوابير من ضمها إلى مجموعتهم، إلا أنها اكتشفت الحقيقة من خلال مشاكساتهم المستمرة؛ لأنهم متفقون من أجل الزعزعة، وحاولت الاعتذار لزميلها وهو الآخر رد عليها عذرًا فإن كبريائي أكبر من أقبل الاعتذار.

***

في قسم إدارة الأعمال، وفي العام الثالث للدراسة، اختار عدد من الطلاب والطالبات هذا القسم، كان عدد الملتحقين به قليل جدًا..

لم يصل إلى 20 طالبًا وطالبة، والأهم من هذا كله أن هؤلاء الملتحقين ينتمون إلى مجموعات مختلفة، من حيث تكوين الدفعة ولم يكن من ضمنهم من مجموعة الطوابير أحد، وكذلك مجموعة مولانات الدفعة التي تنتمي إلى خلفيات دينية مختلفة؟

ما يميز مجموعة المولانات أن لهم فتاويهم المختلفة؛ فمنهم من لا يصافح الطالبات وآخرون يجدون مخارج للمصافحة، وقد كان من بين الذين لا يصافحون بل من هو متشدد في ذلك قد تنازل عن المصافحة وأصبح يجلس في جلسات أنس ومرح لست أدري على أي فتوى أعتمد!

أحدهم يسأل:

كيف لهذا الطالب المتعصب والمتشدد بدأ يتنازل؟

الطالب:

لقد أحرجت العديد من الطالبات في عدم المصافحة.

آخر يسأل:

هل هذا مبرر كافٍ؟

ليس لي مبرر أكثر من كوني أصبحت محرجًا بين الزميلات!

ثالث أسألك: ثلاثة أعوام كانت كفيلة وجعلت منك معروفًا بين الدفعة؛ فكيف تصافح في العام الرابع؟!

الطالب:

ذكرت ذلك كثيرًا، لكن لي مبرر ولا أعتمد على أيَّة فتوى.

هذا العدد القليل من طلاب قسم الإدارة، جعلهم أكثر تفهمًا وترابطًا، وكان أحد الأساتذة يقدم لهم من خبرة إدارة الإنتاج بمكتبه، ولهذا الأستاذ سكرتيرة اسمها (مارسلينا)، وبينما هو يقدم شرحًا عن إدارة الإنتاج توقف قليلًا ونادى مارسلينا يقصد أن يكرم طلابهويقدم لهم ضيافة..

وجاءت مارسلينا، وسألها البروف:

أحضري لنا شيئًا نكرِّم به هؤلاء الشباب

مارسلينا:

ماذا أقدم لكم شاي أم مشروبات باردة؟

يوجّه البروف سؤاله إلى الطلاب؛ فمنهم من يطلب شاي وآخرون أي مشروب غازي توقفت المحاضرة بضع دقائق. عاد البروف ليواصل درسه؛ فينظر إلى طلابه ويقول أين توقفت

فإذا بأحد الطلاب يقول له آخر كلمه قلتها «مارسلينا»، وضج الحاضرون ضحكًا؛ فما كان منهم إلا أن أطلقوا عليه لقب مارسلينا، وكان البروف متى ما قابل هذا الطالب ينادي عليه:

أزيك يا مارسلينا!

كانت مادة الإدارة المالية جافة جدًا، ومما زادها جفافًا محاضرها الذي هو الآخر حاصل على أعلى الدرجات المهنية فيها؛ فيتعامل في شرحها بطريقة وكأنه يتعامل مع علماء في هذه المادة، وكان ذلك ضغط آخر على طلاب القسم، وهؤلاء الطلاب يعتبرون مدللين جدًا؛ لأن عددهم قليل وإدارة القسم تولي اهتمامًا أكبر بهم؛ فأعطاهم إحساسًا أنهم يستطيعون أن يتمردوا على كل شيء!

والأمر الآخر أن رئيس القسم في هذه الفترة تمت ترقيته إلى عميد الكلية، هذا العميد يدرسهم إحدى المواد وكان قريبًا جدًا إليهم، وحين سمع بقصة مارسلينا كان ينادي عليه في قاعة المحاضرة بذلك الاسم: مارسلينا!

ذات يوم قرر هؤلاء الطلاب بإجماع ألا يحضروا محاضرة الإدارة المالية؛ فكان قرار مجموعة العشرين بل أقسموا جميعًا على ألا يكون بينهم أي متخاذل، وكان توقيت هذه المحاضرة

في منتصف النهار، جاء المحاضر إلى القاعة فلم يجد أحدًا، وعاد إلى مكتبه وتكرر معه هذا المشهد للمرة الثانية، وفي المرة الثالثة تمردت إحدى الطالبات وانتظرت المحاضر وهو لم يقصر معها، قدم لها المحاضرة لوحدها بل في نهاية المحاضرة..

الأستاذ يسأل:

أين بقية الطلاب؟

الطالبة: لست أدري ولكنهم نزلوا قبل حضورك بدقائق

الأستاذ: ماذا عن عدم حضورك الأسبوع الماضي؟

الطالبة: كنا متفقين على عدم الحضور، ولكني تراجعت

الأستاذ: جميل جدًا

يذهب الأستاذ إلى إدارة القسم ويقدم لهم كشف الحضور به طالبة واحد فقط، ويقدم تقريرًا عن تمرُّد طلاب القسم...

إدريس!إدارة القسم سوف ننظر في الأمر، فاجتمع الطلاب والإدارة لمعرفة ما يجري، كان قرار الطلاب أن هذا الأستاذ يتعامل معنا وكأننا علماء إدارة، ولا يقدم الشرح الوافي بل لا يرشدنا إلى أسماء المراجع التي تعتمد عليها الإدارة، سوف تقوم بدراسة الأمر مع الأستاذ ولكن عليكم الحضور!

الطلاب: سوف نحضر

وفي المحاضرة يأتي الأستاذ مستفسرًا: إذا كانت لديكم أي معلومة غير واضحة فأنا من الآن جاهزة لتوضيحها؟ولكن أعيب عليكم طريقة الاحتجاج هذه؛ فأنتم على مشارف التخرج من هذه الجامعة، ويجب أن تكونوا قدوة للأجيال القادمة..

يتقدم أحد الطلاب:

عذرًا أستاذنا فربما يتمثل الخطأ في طريقة توصيل المعلومة لك.

الأستاذ: حصل خير إن شاء الله..

وبعد انتهاء المحاضرة جلست الدفعة للتفكير في عقاب هذه الطالبة التي أفشت سر المجموعة..

يقول داوود رئيس المجموعة بالقسم لا بدّ من قرار جماعي، ودار نقاش طويل في البحث عن وسيلة تردعها وتعرفها حجمها الطبيعي، وأن الخروج عن رأي المجموعة له ثمنه؛ فكان قرار الحصار الاجتماعي، والذي يتكون من النقاط الآتية:

- عدم الجلوس معها بأي حال من الأحوال.
- عدم المبادرة بالسلام عليها وإذا بادرت هي بالسلام يرد عليها ببرود.

- عدم دعوتها إلى أي مراجعة جماعية تقوم بها الدفعة.
- الابتعاد عنها قدر المستطاع.
- عدم تقديم أي مساعدة من أوراق عمل أو مذكرات تخص الدفعة.

صدر القرار بالإجماع وفي صبيحة اليوم التالي بدأ تطبيقه فعليًا من قبل الدفعة على الطالبة.حاولت الاعتذار لزميلاتها الطالبات عسى ولعل ذلك يكون حل للعزلة التي بدأت تعاني منها.

الطالبات يرفضن الأمر ويؤكدن على أنها خانت الجميع؛ فليس باستطاعتهن تقديم أي تنازل فردي لها لما سيكون له عواقب مماثلة من قبل الدفعة.

كان هذا القرار بمثابة اختبار حقيقي لطلاب وطالبات القسم، وقد تأثرت هذه الطالبة نفسيًا ومرضت مرضًا شديدًا، ومع ذلك لم يتجرأ أحد بالسؤال عنها، وبعد مرور شهرين عادت إلى قاعة الجامعة ولم يتغير أي شيء مما تسبب لها في ملاحق، وعادت إلى الدفعة الثانية بينما كل الطلاب والطالبات انتقلوا إلى العام الدراسي الأخير.

ظلت تردد دومًا هذا جزاء الخروج عن رأي الجماعة، وفي عام تخرج الدفعة وهي ما تزال بالدراسة توسطت إحدى الطالبات

بالعفو عنها كيف لا ونحن على أعتاب التخرج؛ فكان قرار رفع الحصار الاجتماعي عنها فردي من غير أن يكون جماعي!

في منتصف العام الدراسي الأخير للدفعة، كانت هنالك رحلة من قبل قسم الإدارة وقسم السكرتارية إلى إحدى المصانع الحديثة.. قسم الإدارة به دفعتان ثالثة ورابعة وكذلك قسم السكرتارية، يقود الرحلة عميد الكلية الذي كان قبل فترة رئيس قسم الإدارة الجامعة.

حدد وقت التحرك السابعة والنصف صباحًا، عدد طلاب وطالبات القسمين أكثر من حمولة الأتوبيسين، دار نقاش بين الإدارة وفي الأخير كان القرار الذهاب بمن حضر، وتم تبليغ أحد الطلاب كي يعلن الخبر للقسمين هذا الطالب على علم بتفاصيل الرحلة وعدد البصات؛ فبلغ الجميع الحضور عند الساعة 8:15 صباحًا.

بلغ الخبر الجميع وقام الطالب بدوره تبليغ من يهمه أمرهم- أي المقربين منه بالموعد الحقيقي- والكل ما بين مصدق ومكذب له، بل إن معظم أصدقائه كانوا يعتقدون أن يمازحهم..

أحدهم يسأل:

متى الموعد الحقيقي بالضبط؟

الطالب يجيب: السابعة والنصف صباحًا هذا الموعد المعلن

آخر يسأل:

سمعت أنه في الثامنة والربع!

إذن عليك مراجعة الإدارة

وثالث يسأل:

لقد راجعت الإدارة قبل قليل فكان ردهم أنك منسق هذا الموعد؟

الطالب يجيب:

إذا كان الأمر كذلك؛ فعليك بالحضور مبكرًا!

بينما الجميع في حيرة من أمرهم بأن موعد الرحلة الساعة السابعة، والباصات جاهزة والحضور معقول جدًا، يسرع الطلاب والطالبات نحو الباصات، وتنطلق الرحلة إلى الجهة المقصودة.. هنا العديد من الطلاب تأخروا وجلهم من أصدقائه المقربين..

البروف يسأل منسق الرحلة:

مالي لا أرى فلان يذكر أحد الطلاب؟

المنسق:

لقد علمت أن هنالك حافلتين فقط؛ فأعطيت الجميع موعدين، وكان قصدي من ذلك يكون حريصًا على الحضور مبكرًا.

عذراء أسفل عجلات القطار

تسيقظ القرية على خبر مفجع، نبأ وفاة فاطمة تحت عجلات القطار، يبادر الحاضر بإعلان الغائب بالواقعة، ويتمنى البعض لها الرحمة بينما يردد آخر: اذكروا محاسن موتاكم..

ربنا يرحمنا جميعًا!

أخذت الشر ورحلت!

كان النبأ مفجعًا، لكنه معتاد، فلا يمر شهر في تلك القرية دون سماع مثل تلك الحادثة، خاصة مع غفلة عامل التحويلة وعدم حذر المارة عند عبور شريط السكة الحديد؛ فربما كان أحدهم منشغل البال في قضية ما أو في توفير نفقات أبنائه، أو ربما ظن أن القطار لا يزال بعيدًا فيتمهل في السير، لتكون عجلات القطار أسرع إلى جسده من عجلة الحياة، في النهاية هي أعمار، لكنه استهتار.

ظل نبأ وفاة فاطمة يتردد كثيرًا كنوع من العظة والعبرة، وكنوع من القصص التي يحب أن يتداولها البعض ويرددها، بل إن بعض الأشخاص يختلقون أحداثًا وهمية لموتاهم، وكأنهم شهود عيان على الواقعة، رغم أنه ربما لم يكن أحد على الإطلاق قد رآها عند لحظة الموت، لكن البشر بطبعهم محبون للحكي والقصص حتى لو كانت محض خيال.

ظن البعض أن زوجها من قتلها أو ربما والدها، بينما أكد آخرون أنها ماتت قضاء وقدرًا، لكن يصر الثلث الأخير على أنها قد انتحرت، فماتت بملء إرادتها.

كلها مجرد شائعات ستنتهي بوقوع حالة أخرى، فالقصص الجديدة تنسي الوقائع القديمة.

لم تغسَّل فاطمة كما هو المعتاد في مثل هذا النوع من الوفيات، كفنوها قبل الصلاة عليها داخل المسجد، لم يحضر عدد كبير تشييع الجنازة، ربما لأن وقت الدفن كان بعد صلاة الظهر، وفي يوم الثلاثاء والجميع في أعمالهم ومشاغلهم، أو ربما كان ذلك موقفًا اتخذه البعض عن قصد ظنًّا أنه لا يجوز الصلاة عليها أو تشييعها، لكن الحقيقة المؤكدة هو أن ابنها صاحب الرابعة عشر عامًا كان حاضرًا في أول الصفوف، يحمل جثمان والدته تارة ويسير بجانبها تارة أخرى حتى مثواه الأخير، لم يبك، وقف كالرجال رغم صغر سنه، لم يهتز له جفن، صامدًا هادئًا مطمئنًا، ففسر البعض حاله على أنه في صدمة شديدة بفقدان الأم في هذا العمر، بينما ظن آخرون أنه فرح بوفاتها، فهنا قد انتهى عاره وعار والده وجده!

لكن كيف له أن يتحمل كل ذلك؟!

اللهم ارحمها واغفر لها ذنوبها وتقبلها.. اللهم تغمدها برحمتك

آمين.. آمين

تلك الكلمة الوحيدة التي رددها هذا الولد في جمع من الناس وقفوا أمام المقبرة لإتمام مراسم الدفن.

يسمع عبد الرحمن بأذنه بعض الأحاديث الجانبية التي تطال أمه، لكنه لا يقول شيئًا، كثيرون ينهشون في عرضها وسمعتها، وآخرون يذكرونها بالخير، لا يتخذ موقف أحد الطرفين، يظل يسمع دون أن ينطق، دون أن يثور وكأنه يعلم ما يجب عليه أن يفعله، فلا يصح له البكاء، كما لا يمكنه أن يرد غيبة أمه المتوفاة.. فقط يكتفي بالصمت وهز رأسه.

يقدم البعض له واجب العزاء، لكنه يشعر في قرارة نفسه أنهم يقدمون التهاني والمباركة على وفاة والدته؛ فيحتضنه بعضهم كنوع من الدعم والود، لكنه يشعر بسعادة تخرج من أجسادهم، ليست بروح المواساة، إنها روح الفرح، فيتقبل كل شيء بسكينة تامة، وتظن أنه مغيب تمامًا عن المصيبة والحادث العظيم الذي يمر به.. طفل فقد أمه.

يعود لمنزل العائلة برفقة والده وجده اللذين اضطر لدفنها وتشييع جثمانها، ليذهبا مسرعين إلى المنزل ليغتسلا من أثار الغبار الذي لحق بهما، ثم يطلبا الطعام.

يأكل الأب والجد بنهم شديد، وكأن بطونهما كانت فارغة منذ خمسة أشهر، يطلبون المزيد من الطعام، والكثير من الحلو والشاي، لا يتعجب عبد الرحمن مما يرى، وفي الوقت نفسه لم يتناول قطعة واحدة من الطعام.

لا يكترث له أحد كأنهم في احتفال لا في مأتم، يتسامران، يتحدثان عن زيجة جديدة في انتظار الأب.

يا حامد يا ابني.. زوجتك في انتظارك

هل هناك أحد بعينه تقصده يا والدي؟

نعم! ابنة عمك..

يصمت حامد قليلًا: لكن أتظن أنها تقبل بالزواج بعد كل هذه الأحداث؟

أنت ابن عمها، لا يمكن لها أن ترفض.

لكن يا والدي لا أريد أن تكون مكرهة على الزواج، فلا أحب أن أكرر نفس الخطأ.

لا شيء يجبرها، وهي كانت تتمناك قبل أن تتزوج، لكنك تسرعت في الزواج من تلك المرأة التي لا تشبهنا، ولم تكن لك من البداية يا ولدي.

الوضع اختلف الآن، فأنا لست بمفردي ومعي عبد الرحمن.

ليس له أي تأثير، اطمئن.

إذن بعد الأربعين نتحدث إلى عمي.

ولماذا ننتظر الأربعين!

حتى لا يتحدث عنا أهل القرية بسوء.

لا لن يتحدث عنك أحد، بل لا يجرؤ أحد على الحديث.

وماذا عن عبد الرحمن؟

لا شيء نفعله، تتزوج ويظل معي حتى مرور أسبوع على زواجك ثم تأخذه معك في منزلك أنت وزوجتك.

والله يا أبي لا أخفي عليك قلقي عليه.

لماذا؟

ألا ترى أنه لم يبكِ مطلقًا منذ نبأ وفاة فاطمة؟

لأنه يعلم أن موتها راحة لنا يا ابني.

لكنه صغير ولا يمكن أن يكون قد شعر بذلك.

لم يعد هناك طفل صغير، الأطفال يعلمون كل الأشياء الآن.

على الأقل يبكي، يصرخ، يثور حتى نطمئن.

اطمئن، لا خوف عليه ولا منه، فماذا يمكن له أن يفعل؟! الصمت خير يا ابني، المهم أنت، الأيام ستنسيه ما مر علينا طوال الشهور الماضية.

على الأقل ننتظر شهرًا قبل إتمام الزواج.

لا شهر ولا غيره، هو أسبوع واحد فقط.

أسبوع واحد؟!

والله يا ابني ولا تستحق حتى الأسبوع، لكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

يتردد حامد في الموافقة لكن يعجبه ما يقوله والده؛ فهو يرى أنه يستحق حياة أفضل تنسيه حياته الماضية.

سأذهب لنوم القيلولة ساعتين، فاليوم كان طويلًا جدًّا دون داعٍ.. «الجنازة حارة والميت كلب».

يسمع عبد الرحمن كل هذا الحديث من داخل الغرفة في ذلك المنزل القديم، فبعد الدفن أخذه والده إلى منزل الجد وليس منزل الأب الذي يقيم فيه عبد الرحمن، لكنه لا يلفت الأنظار إليه، يستمع دون أن يلاحظ أحد، لكنه لا يتلصص، فهم في الأساس لا يعيرونه أي اهتمام، إنه يمعن الاستماع جيدًا ولا تبدو على وجهه أية علامات.

تمر الأيام مسرعة ويتزوج حامد من ابنة عمه، وينتقل عبد الرحمن للعيش مع الزوجين الجديدين اللذين تناسيا أمر الزيجة الأولى ووفاة الزوجة على قضبان القطار، وكأن شيئًا لم يكن. كانت الزوجة الجديدة حنونة على هذا الطفل الولد، تعيره بعضًا من اهتمامها،على أمل أن يرزقها الله بطفل من حامد، فهي تعلم أنه لا ذنب له فيما اقترفته والدته، وأنه روح عليها أن تتقي الله فيها.

لم تكن الزوجة الجديدة على قدر من الجمال، لكنها كانت على قدر كبير من الإنسانية، اعترضت على الزواج بهذه السرعة، لكنها في الوقت نفسه لم ترد أن تغضب والدها الذي وافته المنية بعد شهر من زواجها، فكانت حالته متأخرة جدًّا بعد أن وصل إلى سن التسعين.

رغم رفضها الزواج بهذه السرعة، إلا أنها حمدت الله على ذلك بعد وفاة والدها، وإلا لما كان شهد عرسها ولا باركها، بل ربما قد وفاته المنية، وهو غاضب عليها، هكذا كانت تقول لنفسها وتحمد الله على عدم الإصرار على الرفض وتلبية رغبة العم والوالد.

مرت الأمور هادئة جدًّا على الزوجين، وتناسى الجميع أمر فاطمة، لكن وحده عبد الرحمن من يُحضِرُها على الورق وعلى الحائط بكتابة اسمها على جدران غرفته بخط صغير لا يقرؤه سواه.

لم يشأ القدر أن تحمل تلك الزوجة، فصارت بمرور الوقت أمًّا لعبد الرحمن، الذي اندمج معها وصارت أقرب الناس إلى قلبه، فأحبها كما أحب والدته، لكن ظل كما هو لا يتحدث لأحد سوى بكلمات قليلة، ولم تظهر عليه أية بوادر تعلق بوالده أو جده، فكان يكره اليوم الذي يزور فيه جده، وكانت الزوجة تشعر بذلك، لكنها تخبره بأنه يجب عليه أن يحب جده، وعليه احترامه وتقبيل يديه عند رؤيته، فهو لها في مقام والدها الذي فقدته.

لا يستجب عبد الرحمن لما تقوله، يشعر بالغضب من مجرد رؤية جده ووالده معًا، ولا يتحدث بأي سوء، فقط يرفض تناول الطعام معهما أو الاستجابة لحوارهما.

في يوم من الأيام يذهب حامد لوالده ليخبره عن رغبته في تطليق ابنة عمه:

- أنا أفكر في الطلاق يا أبي.

- طلاق ! أي طلاق؟ كيف؟ هل جننت؟ هل تطلق ابنة عمك؟!

- نعم، لم تعد تسعدني، ولا أشعر بالراحة معها.

- كيف هذا الكلام؟ ماذا حدث؟

- لم تعد تريدني، فمنذ أكثر من ثلاثة أشهر ترفض أن أقترب منها، فكلما جئتها في الفراش هجرتني، وتسوق عشرات

الحجج والأسباب حتى لا أقربها، بل الأدهى من ذلك أنها كثيرًا ما تذهب للنوم في غرفة عبد الرحمن.

- كيف ذلك؟

- والله يا أبي هذا ما يحدث.

- لماذا؟ هل فهمت منها؟

- حاولت مرارًا وتكرارًا لكن لا فائدة، لم أصل إلى أي شيء، مرة مريضة، ومرة في دورتها الشهرية، وأخرى حزينة ولا ترغب، بل في إحدى المرات صممت على العلاقة فأعطتني جسدها كالأموات، لا روح فيه ولا استجابة.

يجن جنون الجد:

- لماذا كل هذا؟ هل أغضبتها يا بني؟ هل حدث بينكما شيء؟ ولماذا صبرت ثلاثة أشهر؟ لماذا لم تتحدث من الأسبوع الأول أو الثاني؟

- أردت أن أفهم وأعطيها الفرصة ليخيب ظني، لكن في الحقيقة هي لا تريدني، ويبدو أنها تخجل من طلب الطلاق خوفًا على حزنك يا أبي.

- وماذا عن حزنك أنت يا ولدي؟

- لا يهم، هي لا يهمها شيء، بل حتى الطعام لم تعد تهتم بتقديمه، تكتفي بإطعام عبد الرحمن ما يريد، بينما تتجاهلني أو تقدم بلا اهتمام، في الحقيقة كل شيء تفعله على مضض.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

- اذهب وأحضرها لي، أريد أن أتحدث إليها

- ومافائدة الحديث؟

- أريد أن أفهم ماذا يحدث، لا يمكن أن يقع الطلاق، هي مثل ابنتي فتركها والدها وحيدة وأمانة لدينا، كيف لنا أن نتركها! من لها غيرنا!

تأتي الزوجة لعمها يحاول أن يخرج منها بسبب واحد لحالتها، لكنها لا تقدم إجابة مفيدة تشفي فضول هذا الرجل وجنونه.

- هل تريدين الطلاق يا ابنتي؟

- من جاء بسيرة الطلاق يا عم أبو حامد؟

- أنتِ؟

- أنا؟ كيف؟ أنا لم أطلب الطلاق، فليس لي غيركم.

- إذا ما الأمر يا ابنتي؟تحدثي إليَّ أنا مثل والدك، ماذا بك؟

- لا شيء.

- إذا لماذا ابتعدتِ عن حامد؟

- لا شيء يا عم، انا فقط كنت مريضة.

يشعر الجد أن ابنة أخيه تخفي شيئًا لا يستطيع معرفته، لكنه يتوقعه وهو أن المرأة فقدت الأمل في الحمل؛ فما يشغلها أن تلد طفلًا لحامد وللعائلة، فحامد قد تزوج قبلها وأنجب، ولا شيء يعيبه لكنها هي من تعجز عن الإنجاب.

هكذا فهم العم من صمتها وشرودها، واقترح على حامد اصطحابها لأحد الأطباء لتلبية فطرتها في الأمومة، ليعرض حامد الأمر عليها ليفاجيء بصعقة الإجابة:

- من قال لك إني أريد أن أحمل منك؟ أنا لا أريد أبناء منك.

ظن حامد في بداية الأمر أن لا تعني ما تقوله، ربما لأنها فقدت الأمل في الإنجاب بعد مرور أربع سنوات على زواجهما.

- كل شيء له علاج، لا تقلقي.

- علاج؟ أي علاج تتحدث عنه؟

- الحمل.

- هل تظنني عاجزة عن الحمل؟

- لا، كل ما أقصده أنه ربما تكون هناك بعض المشكلات التي تسببت في عدم إنجابك حتى الآن.

- هل تجيد القراءة جيدًّا؟

يصمت حامد حتى تستكمل حديثها، تفتح خزانة الملابس لتخرج له تحليلًا يفيد بحملها منذ شهرين.

- لا يمكن ! هل أنت حامل؟

- كنت حاملًا.

- كنتِ؟

- نعم.

- والآن؟

- أجهضت نفسي.

- ماذا تقولين؟

- كما سمعت، أجهضت نفسي.

يصرخ الرجل ويعنفها، بل ويصفعها على وجهها على ما فعلته، فكيف لها أن تقتل طفله، وكيف لها تجرؤ على ذلك الأمر؟

يسمع عبد الرحمن صوتها فيسرع إلى غرفتها ليحتضنها، ويحاول إبعاد والده عنه، لكنه يفاجئ بوالده يلقي به على الأرض

ليبعده عنها ويكمل صفعها لها، لم يستسلم عبد الرحمن، بل تلقّى بعض الصفعات بدلًا منها.

يخرج حامد مسرعًا إلى والده ليخبره بما حدث ليحضره في الحال ويسمع بنفسه ويرى؛ فتقف لهم الزوجة ثابتة قوية ممسكة بيدي عبد الرحمن: نعم قتلت الطفل قبل أن يولد؛ فلن أحمل أبدًا منك مهما حدث.

لا يستوعب الجد ما يحدث، فلماذا تفعل كل ذلك وهي تحب حامد؟ وكانت تتمنى أن تنجب منه، وعلى علاقة جيدة بعمها وبعبد الرحمن، فلماذا تقدم على تلك الخطوة؟ كلها تساؤلات يكاد الجد يجن بسببها، ليصرخ حامد:

- سأبلغ عنها، سأقتلها.

- اقتلني كما قتلت فاطمة.

يشعر حامد كأنها صفعته على وجهه، فيسود وجهه ويتوقف عن الكلام، وكأن لسانه قد قطع ويده قد شلت وقدميه قد توقفا عن الحركة، ليرد الجد عنه:

- قتل! كيف له أن يقتل؟ ماهذا الجنون يا ابنتي؟

- هذا ليس جنون ياعم، هو قتل وأنت ساعدته على ذلك.

– أنا؟

– نعم، وسأبلغ أنا عنكما.

صدمة كبيرة هزت أركان المنزل في دقائق معدودة، لكن حامد يصر على إنكار فعلته: لم أقتل، أقسم بالله لم أقتل، فأنا لا أخاف منك أو من الشرطة، أنا لم أقتل.

– القتل يا حامد ليس بعجلات القطار، لقد قتلتم فاطمة قبل أن يدهسها القطار.

– هل جننتِ؟ أقسم بالله لم أقتلها، وكيف أقتلها؟ أنا لم أرها قبل موتها بعشرة أيام، أقسم بالله لم أقتلها.

– وماذا قبل العشرة أيام؟

– لا شيء، أقسم بالله لا شيء، من قال لك إني قتلتها؟ وما دليله؟ وكيف كانت الوسيلة؟

– قتلتها بهتك شرفها وعرضها الذي هو شرفك وعرض والدك.

لا يفهم الجد ماذا تقول الزوجة، يشعركأنه يشاهد فيلمًا من أفلام الأكشن والإثارة دون أن يفهم سياق الأحداث، لكن حامد وحده يعلم ماذا تقصد، فيردد حامد:

– هي جنت على نفسها، هي انتحرت بإرادتها، هي استحقت نهايتها.

خانتني وهي في عصمتي وحملت سفاحًا، ولم أفعل لها شيئًا رغم ذلك هي من أقدمت على الانتحار.

يذهب عبد الرحمن مسرعًا إلى غرفته، ويأتي بشيء من ملابس والدته فاطمة، ليعطيها لزوجة أبيه.

وماذا عن هذا يا حامد؟

يصاب حامد بالصدمة مما يرى، فتلك الملابس كانت آخر ما ارتدته فاطمة له قبل أن يشيع في القرية أنها خانته وحملت من غيره، ليقيم أهل القرية حكمًا عليها بالرجم، فيعلم أن لا شيء يمكن أن يظل في الخفاء طوال العمر.

يسأل الجد عن الأمر، فهو في الحقيقة لا يفهم ولا يعلم ما تقصده ابنة أخيه حتى لو كان فرحًا بموت فاطمة، ليرد لأول مرة عبد الرحمن الذي يؤكد أن والدته امرأة شريفة لم تخن والده، وأن الحمل كان من والده، وأنه كان على علم بذهاب والدته لبيت حامد رغم إصرارها على الطلاق منه بسبب اكتشافها خيانته لها، فبعد أن ذهبت إلى منزل أبيها هي وعبد الرحمن وهي مصرة على الطلاق إلا أن زوجها حامد يحاول استمالتها وإثناءها عن تلك الخطوة، وتضعف أمام رغباتها فتذهب معه إلى منزلهما الذي

هجرته لكن دون أن تخطر والديها بمقابلتها لزوجها سرًّا خوفًا من أن يتخذا موقفًا منها بعد كل ما فعلته من أجل الحصول على الطلاق، ورفضها الصلح.

كانت فاطمة تخشى أن يفتضح أمرها بقيامها بمعاشرة زوجها رغم المشكلات التي حدثت بينهما، فكتمت الأمر عن والديها، وكأنها فعلت جريمة تستوجب العقاب، رغم أن الزواج لا يزال قائمًا وهي زوجته على سنة الله ورسوله.

عبد الرحمن وحده رغم صغر سنه آنذاك كان يعرف كل ذلك، لكنه كان يخشى الحديث، وكان حامد يعرف ما يحدث بينه وبين والدته، لكنه أيضًا كان على يقين من أن عبد الرحمن لا يزال طفلًا قد ينسى ما يحدث أو أن ضعف شخصيته وخوفه من والده يجعله لا يتحدث في ذلك الأمر.

الحقيقة أن عبد الرحمن لم يكن طفلًا بل كان يعي جيدًا كل ما يدور، بل هو من ساعد والدته على اختيار ملابس النوم عند ذهابها لرؤية والده، وما هو أعظم من ذلك أنه ذهب معها لمنزلهم، واستأذنه تتركه يلعب مع أقرانه في الشارع أمام المنزل حتى تنتهي من لقاء والده.

ربما كان عبد الرحمن يجهل طبيعة العلاقة الحميمة بين أبيه ووالدته، لكنه يمكنه أن يفهم بعض الأمور البسيطة والتي كان على رأسها أن أمه لم تفارق منزل والدها إلا لرؤية حامد، وأن تلك الثياب قد أعدتها لحامد، فأخبرها عبد الرحمن أن والده يحبها في هذا الملابس حينما أومأ له ذات مرة أن والدته جميلة بالأزرق ليختار لها نفس اللون ونفس الثياب، لتكتشف فاطمة بعد شهرين حملها، لتخبر حامد الذي يثور وينكر هذا الحمل متهمًا إياها في شرفها وعرضها، مستغلًا ذلك الأمر لتشويه صورتها أمام أهل القرية، لينكر عليها والداها هذا الأمر، بل تتفاقم الأمور بينهم فيظنان في ابنتهما السوء، فلا تجد من ينقذها من الألسنة ومن الاتهام، لكنها كانت تثق في عدالة السماء، وفي قلب حامد الذي لا يمكن له أن ينكر ابنه، كما أن عبد الرحمن كان كبيرًا بما يكفي وشاهدًا على ذلك، لكن لم يصدقه أحد.

جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، فحامد فعل كل ذلك عن عمد وقصد، فاستدرجها إلى منزله بدافع الحب والحاجة واعدًا إياها بمقاطعة النساء والاكتفاء بها وحدها ليورطها في ذلك الحمل ليبث للقرية كلها أن امرأته زانية وتستحق الرجم،

وأنها تركته لأجل عشيقها، فلا تحتمل فاطمة كل هذا الكلام خاصة مع مرور ستة أشهر على حملها لتودع عبد الرحمن في ليلة شديدة العتمة، شديدة البرودة، لتلقي بنفسها أسفل عجلات القطار، ليكون السائق أشد رحمة بها من حامد فيهتك عظامها وجنينها لتصبح جثة هامدة يتناول أهل القرية الحديث عنها، يخوضون في عرضها دون أن يعلموا أنها كانت من أطهر نساء القرية، وعندما عجزت عن أن تجد الرحمة في قلوبهم بحثت عنها في مقابرهم، ليظل عبد الرحمن الشاهد الوحيد على طهر أمه وجرم أبيه، لتكتب النهاية بأن تنتهي تلك الزيجة، وتخرج الزوجة الجديدة مع عبد الرحمن دون عودة، لتعود ألسنة الناس للحديث عن هروب الزوجة مع ابن زوجها.

وتبدأ قصة شرف جديدة بأبطال جدد، دون أن يعلم أحد الحقيقة.

***

العذراء والكابوس

– سعدية.. سعدية يا سعدية يا سعدية.

– توقفي عن المناداة يا أمي هي لن تسمعك.. هي في ملكوت آخر.

– اذهبي واحضريها لتساعدني في تجهيز الطعام، الوقت يجري مسرعًا، ولم يبقَ سوى ساعتين على أذان المغرب.

– هيا اذهبي.. والدك على وشك القدوم ومعه الضيوف.

– من الضيوف يا أمي؟

– توقفي عني الحديث، لا وقت للشرح يا بنتي؟

– سعدية سعدية.

لا تجيب الفتاة فتضطر أختها هدى أن تربت على كتفها لعلها تدرك فتفيق من غفلتها.

– ما الأمر؟

– لا وقت أسرعي.. ألا تسمعين كل هذه المناداة؟!

– خير.. ماذا يجري؟

– ألم تسمعي كل هذا النداء؟! الوقت يمر، والوالدة لم تنتهِ من إعداد الطعام، وعليك أن تساعديها.

- ألم تعلمي أن هناك أشخاصًا سيأتون مع والدك؟

- لا أعلم، على أيّ حال هيا بنا.

- نعم يا أمي! ماذا تريدين؟

- كل ذلك ولم تسمعي ! انتِ يا بنتي مش صايمه زيِّنا! وفيه أكل وفيه مائدة لازم تجهز! وفيه ضيوف لازم نجهز لهم كل حاجة قبل الوصول.

- حاضر!

تنفذ سعدية ما تطلبه والدتها على أكمل وجه لكن أمها تشعر بالضيق منها، تريد أن تصب عليها غضبها، فهي حاضرة ومطيعة، لكن في الوقت نفسه غائبة ومشتتة الذهن، هي معها طوال الوقت رغم ذلك فروحها غائبة ومحلِّقة، كأنها من أهل السماء وليست من أهل الأرض.

سعدية فتاة رقيقة جدًّا على قدرٍ عالٍ من الجمال، مطيعة للجميع، لا تنطق كلمة لا أبدًا، الجميع يحبونها لكن يشتعلون غضبًا من شرودها، لا تعرف هل هي معك تسمعك أم أنها في عالم آخر، وتلك مشكلتها الكبرى، لا تؤذي أحدًا، ولا يمكن لوالديها أن يعاقباها على صمتها، لكن هناك شيء يشغلها.. ما هو؟! الله أعلم.

دائمًا ما تكون حديث والديها عند النوم، فهل هي بخير؟! هل تعاني أزمةً نفسية ولا أحد يعلم؟ لكن كيف وهي أمام أعينهم طوال الوقت؟!

تقترح أختها الكبرى عرضها على طبيب نفسي، لكن والديها يرفضان ذلك بشدة، خوفًا من أن تطالها سمعة الجنون، فلا يزال هناك قدر عالٍ من الجهل، ولا زالت ثقافة البعض أن من يذهب لطبيب نفسي شخص مجنون.

لا تبالي سعدية بشيء مما يدور حولها، تُمنِّي نفسها بليلة الزفاف، تنتظر لحظة ارتداء الفستان الأبيض، فلا تنام إذ اقترب موعد زواجها، ورغم أنها لم توافق على أحد ممن تقدموا لخطبتها حتى الآن، لكن جاء دورها في الزواج فهي الأخت الوسطى، وقد تزوجت الكبرى.

تقف طوال ساعات الليل تطل من شرفة منزلها، تنظر للسماء، تحادث القمر والنجوم، تتحدث إلى شخص مجهول لا يراه أحد سواها، تتمتم ببعض العبارات والتي لا يفهمها أحد، وعندما تستيقظ أختها الصغيرة هدى في منتصف الليل بسبب العطش تجدها تحادث نفسها، فتحاول أن تفهم مع من تتحدث، ومع من تنظر إلى السماء، لكن لا نتيجة!

يبدو أنها كانت تتحدث إلى الله تنشده رغباتها وترجو تنفيذها، هي تثق ثقة مطلقة، لكن أكثر كلمة كانت ترددها: أنا على العهد يا الله وعلى كتابك وعلى سنة نبيك يا الله.

لا أحد يفهم ماذا تقصد تحديدًا، لكنها كلما خلت إلى نفسها ذكرت «أنا على العهد يا الله»، وكأنها عاهدت الله شيئا لم تبح به لأحد، وأن هناك عهدًا سريًّا مبرمًا لا يعلمه غيرها.

– هيا تفضلوا.. هيا تفضل ياعم أحمد، تفضل يا حاج إبراهيم، أهلًا يا محمد، تفضل يا ابني.

يدخل الزائرون الغرفة المخصصة لاستقبال الضيوف، ليجدوا مائدة كبيرة في انتظارهم.

يردد محمد: ما شاء الله، لقد شققنا عليكم كثيرًا، لماذا كل هذه التكلفة يا عمي؟ هذا كثير جدًا.

–لا شيء كثير على الأحباب.

«بصلة المحب خروف»، هكذا يتدخل الحاج إبراهيم.

يضحك الجميع.. اللهم اجعله في ميزانك.

يتحدث الرجال عن فضل الصيام على المسلم وعن أثاره على النفس وتهذيبها وإراحة المعدة وأجهزة الجسم.

الله أكبر.. الله أكبر..

أذّن المؤذن لصلاة المغرب، يتناول الرجال التمر، ثم يقومون للصلاة جماعة داخل المنزل، لينتهوا منها ليتناولوا طعام إفطارهم.

«اللهم أطعم من أطعمنا واسقِ من سقانا.. أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة ورزقكم الله فيمن عنده».

آمييين.

هكذا ردد الزائرون بعد تناول الطعام.

استأذن واحد وراء الآخر لغسل يديه بعد تناول الطعام، يفسح لهم والد سعدية الطريق ليتأكد من عدم وجود أحد داخل دورة المياه.

رجل وراء الآخر، حتى جاء محمد الذي يلمح سعدية بطرف عينيه تعد المشروبات الساخنة في المطبخ، والتي يقع في مواجهة دورة المياه، فيحمد الله في نفسه على ما هداه إليه.

يضحك الرجال ويتحدثون عن أحوال البلاد، لكن يقطع الحاج إبراهيم:

- أكلنا وشربنا الشاي وناقشنا أحوال العالم.. يبقى نقاش أحوالنا وخاصة شؤوننا.

- تفضل يا حاج إبراهيم.

- يا أبوسعدية تعرفني جيدًا، وتثق فيما أقدم عليه.

- طبعًا يا حاج أنت مثل والدي.

- إذا لا حاجة للمقدمات.

- نريد ابنتك سعدية لابننا محمد.

لم يكن ذلك الطلب مفاجئًا بالنسبة لوالد سعدية؛ فهو شعر منذ ثلاثة أيام بأن هذا هو المقصد من طلب القدوم للمنزل والإفطار معه، فالحاج إبراهيم في صلاة الجمعة قد لمّح له بالأمر لكن ليس بشكل واضح.

تكلم معه في العموم عن الستر وأهمية تزويج الفتيات، فالعمر يجري مسرعًا، ولا بدّ من الاطمئنان عليهم، وتركهم في أيدٍ أمينة، وأن هناك شبابًا يتمنون مصاهرته.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

- هذا شرف كبير يا حاج، أنا أعلم محمد رجل وابن رجال، لكن الأمر بيد سعدية وليس بيدي، فتعرف ياحاج إلا الزواج، فلا بدَّ من موافقة العروس.

- طبعًا.

- هيا نادِها أمامنا وخذ رأيها.

- لماذا العجلة انتظر للجمعة القادمة حتى تكون قد صلت صلاة استخارة، ويكون محمد قد استخار الله.

يجيب محمد مسرعًا:

- استخرت الله يا عمي وعزمت على الأمر، وأنا جاهز ولا يبقى سوى موافقتكم.

- حسنا يا ابني.. الجمعة القادمة سيكون عندك النبأ.

يخرج الجميع ولم يبق سوى صاحب المنزل، تدخل عليه زوجته تسأله ما الأمر، فيخبرها بما حدث، فتشعر بسعادة عارمة، ولكن ماذا لو علم الشاب بأن الفتاة فاقدة العقل؟

- فاقدة العقل! كيف تقولين ذلك يا امرأة!

- البنت في كامل عقلها، هي فقط صامتة.

تغالط الأم نفسها:

- وهل يمكن لها أن يجد مثلها.

- نعم! لا يمكن.

- توكل على الله وتحدث إليها.

- غدًا إن شاء الله تعالى.

لم تكن سعدية بحاجة ليخطرها والدها بالأمر، هي تلمح الأحداث قبل أن تحكي لها، وهي تعلم محمد جيدًا؛ فهو مدرس بالمرحلة الابتدائية، حسن الخلق، قليل الكلام، ذاع سيطه بسبب إتقانه وتفانيه في عمله واجتهاد كل من يدرس تحت يديه.

تتحدث لها والدتها عن أمره، فتنصت سعدية، لكنها كعادتها تذهب بخيالها بعيدًا، لتصرخ والدتها: وهل ستفعلين ذلك معه؟ هل سيتحدث لك زوجك وتتركينه يكمل الحديث وحده؟ هل هو مجنون يتحدث لنفسه؟

تبتسم الفتاة ولا تجيب، فهي وحدها تعلم ما يحدث بداخلها، تكتفي: الحمدلله! الحمدلله!

لم تأخذ منها الأم إجابة، وإن كان السكوت علامة الرضا، فهل هي سمعتها جيدًا، هل أدركت كل ما قالته الوالدة؟ أم شردت في منتصف الطريق؟ جميعها أسئلة تدور في ذهن والدتها دون أن تجد من يجيبها.

تجلس سعدية في غرفتها تشكر الله على ماحدث، «لم تخذلني يا الله، شكرًا يا الله»، تصلي ركعتين شكرًا لله على محمد وعلى هذه الزيجة.

تجري الأمور بسرعة جدًّا، وتقام الأفراح وتعلق الزينات، فيأتي يوم الحنة ترتدي ثوبًا ملتفًا حولها فلا يظهر منها شيء وتخرج وسط أقاربها وصديقاتها، فتضع الحنة على يديها وقدميها، وتجلس وسط الناس يغنون ويرقصون لها حتى ساعات متأخرة من الليل، فينفضّ الجميع على أن يعودوا اليوم التالي.

يصمت كل هذا الصخب، لا تبقى سوى روائح الأفراح، الجميع نيام، ووحدها سعدية تمني نفسها بتلك الليلة: أنا على العهد يا الله!

يأتي محمد بزيه التقليدي المطرز بالحرير الملون، يلتف الجميع حوله يصلون على النبي عليه الصلاة والسلام ثم يقرأون الفاتحة، ثم يكتب الكتاب وتتم الزيجة على مذهب الإمام أبي حنيفة.

يعود كل إلى منزله، وتدخل سعدية منزلها الجديد، ليصلي بها زوجها قبل أن يبدأ في تناول طعامهما الذي أعده الأهل لهما ليكون ذلك أول طعام يأكله الزوجان معًا.

شكرا يا الله.

دقات قلبها تمر مسرعة، يكاد قلبها يتوقف، يقترب منها زوجها، يداعبها، يقترب أكثر، العرق يتصبب منها، لا تتركني يا الله.

آآآآآآآه دماء تسيل بين فخديها.

حالة من الذهول تسيطر عليها، ماذا حدث؟ دماء؟ كيف؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟

دماء عذريتي!

أنا لا زلت عذراء! .. كيف!

نوبة من البكاء الهستيري، لا تتوقف أبدًا عن البكاء، يحتضنها محمد، يحاول تهدئتها، فهو يشعر بما يمر بها ولحظات الفقدان الأولى والممارسة الجنسية الأولى، قد يكون بكاء الفرح؟

يعطيها مشروب الليمون الدافيء حتى تهدأ.

بالفعل تصمت قليلًا، لكنها تعاود البكاء.

لا يمل محمد منها، يشرع في تهدئتها من جديد، يقنعها بفائدة الماء الساخن وأهمية الاستحمام به حتى تعود لها سكينتها، تلبي نصيحته، تدخل دورة المياه، تفتح صنبور الماء الساخن الذي يتدفق فوقها، تسند برأسها على الحائط، تتذكر كل ما مضى، تبكي تحت الماء.. انتهى الكابوس، تسأل نفسها وتتعجب وتجيب نفسها:

– نعم انتهى، انتهى شكرًا شكرًا شكرًا يا الله.

بكاء انقضاء الغمة.

لم تكن تتخيل سعدية التي لم تهنأ أبدًا بنصيب من اسمها على مدار أكثر من 10 سنوات أنها لا زلت بكرًا عذراء، فقط سقطت من أعلى شجرة عندما كانت في العاشرة من عمرها، فكانت تلعب مع صديقاتها وتحاول كل منهما أن تؤكد أنها الأشد قوة ولديها القدرة على تسلق الشجرة العالية قرب المدرسة، فما كان منها إلا أن سقطت وسالت الدماء بين فخديها، لتتأكد أنها فقدت عذريتها ولم تعد فتاة وأن والدها سيقتلها أو يدفنها حية، ليظل ذلك رغبة دفينة بداخلها، لكنها تعاهد الله على الصلاة الدائمة وعدم تسلق الشجرة ثانية وسماع كلام والدها ليعفو عنها ولا يفضح أمرها حتى لا يكون مصيرها القتل، لتشرد بذهنها بعيدًا طوال الوقت فلا هي على الأرض ولا هي في السماء: الحمد لله أنا على العهد يا الله.

تغتسل من حزنها ومن عذريتها، فيفتح لها الزوج أبوابه لتبدأ حياة جديدة مليئة بالسعادة والسلام بعد عشر سنوات من العذاب، لتضحك بعلو صوتها على ما فات وتحمد الله على ما جاء لينادي المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فتردد: الله أعلى وأجل. سبحانك يا رب يا رحيم بعبادك الطيبين.

***

مرحبا مدرستي

منصور طالب يمتاز بالهدوء في مرحلة المتوسطة، ابن المنطقة الغربية لإريتريا، أكمل عامه الدراسي الثالث والأخير بهذه المدرسة والمرحلة المتوسطة بين أهله وأصدقائه.

متوسط القامة، نحيل الجسم، أسمر اللون كثيف الشعر، يمشي بخطى هادئة، فليس بالمسرع ولا بالبطيء، مميز بين أبناء جيله من الطلاب، شديد الاحترام، يجبرك على تقديره، يحب الجلوس مع الكبار فهو يحب أن يستفيد من أي معلومة يجودون بها.

يواصل الاستماع إلى الراديو باعتباره الوسيلة الوحيدة التي تربطه بالعالم الخارجي، فضلًا عنقليل من المجلات والصحف التي يأتي بها أحد سكان القرية خلال زيارته لأقرب مدينة، قد يكون مضى وقت على صدورها، ولكنها تعني لمنصور الكثير، فهو يحب الاطّلاع.

أكمل منصور الامتحانات وهو يمنّي نفسه بإحراز درجة تؤهله للالتحاق بإحدى الثانويات العليا، يحلم أن يكون طبيبًا، يمضي إجازته مع أصدقائه وسط قريته.

في موسم الخريف للقرية طعم آخر، إنه موسم الزراعة، والده يملك أرضي زراعية يعمل بها منصور معاونًا لوالده، ويعمل الجميع بجدٍ واجتهاد من أجل إصلاح الأرض وتجهيزها.

ينتظر منصور النتيجة، بعض زملائه وصلوا محطاتهم الأخيرة ولديهم قناعاتهم؛ فمنهم من قرر الدخول في مجال التجارة، ومنهم دخل مباشرة في الحِرف.

قرية منصور بها نجار ماهر يدعى إدريس خمسيني، يحفِّز النجار دومًا الطلاب المتفوقين، تجد أمام مكان عمله مختلف الأجياليستمعون باهتمامٍ شديدٍ إلى الراديو، ينقل لهم أحداث العالم، إنه منتصف ثمانينيات القرن الماضي الحرب العراقية الإيرانية، البي بي سي أشهر المحطات الإذاعية، مراسلوها يقدمون التقارير، الحضور منقسم بين البلدين عراقي يحب أن يسمع انتصارًا، وإيراني يميل إلى الجمهورية الإسلامية.

إدريس ومن معه مهتمون بنتائج الحرب أين وصلت، مفاوضات سرية وعلنية، لكن يظل منصور مهموم بنتيجة المرحلة المتوسطة، فجأة إدريس يغير الموجة إلى إذاعة أخرى، الجميع يحتج، منصور منزوٍ بإحدي أطراف المجلس غير مبالٍ، ينظر إلى الحضور:

أريد أن أسمع رأي الطالب منصور، هكذا قال إدريس.

الجميع في صمت:

يعيد عليه السؤال:

- أي الإذاعات تفضلها يامنصور؟

- صوت الجماهير الإريترية.

الكل ضحك.

منصور: ماذا بكم؟

إدريس: يريدون إذاعة خارجية.

منصور: علينا معرفة أحداث بلادنا؟

إدريس: وهو كذلك.

يغير إدريس الراديو إلى صوت الجماهير الإريترية.

إنه صوت الوطن، أغاني وأهازيج، مذيعون يتبادلون النشرات بتسع لغات داخلية، مسلسل طويل، ومابين نشرة ونشرة أغنية حماسية، ينفض المجلس بعد ساعات من الاستماع، وكل شخص يشرح ويسترسل في التفاصيل، وكأنه مذيع، بل أحدهم يعطيك إحساسًا أنه يقدم لك النشرة من داخل الحدث.

ذات يوم بمنتصف أغسطس/ آب، في يوم ممطر، يأتي رجل في عقده الخامس ضيفًا لأحد أقاربه ومعه نتيجة المرحلة المتوسطة، بل توزيع الطلاب بالمراحل الثانوية، وجدول يوضح خريطة العام الدراسي الذي سيبدأ في السادس من سبتمبر/ أيلول، يقدم

الأوراق لإدريس باعتباره موقع عمل في وسط السوق، وهنالك مجموعة كبيرة من الشيب والشباب يجلسون حوله.

إدريس يوقف الراديو

يعلن بيانًا مهمًا: أنا إدريس صاحب منجرة سمهر، اسمعوا جيدًا، كل طلاب القرية رسوب.

يكبر أحدهم.

يرد إدريس: لا تقاطعوا البيان، الطالب منصور ثاني الطلاب على المركز.

الجميع يصفق، ينظرون فلا يجدون منصور.

أين الطالب النجيب؟

- إنه بالمزرعة مع والده.

ويكمل إدريس بيانه: أما بالنسبة للطالبات جميعهن إلى العرس فليس بينهن من نجحت..

انتهى البيان.

الجميع يتحرك إلى منزل عبدالله والد منصور يقدمون التهاني، منصور إلى الثانوية العليا، لا يصدق منصور ما يسمعه، رغم قناعته بأنه يستحق هذا النجاح نتيجة ما بذله من مجهود، منصور العصامي

يبني مجدًا للقرية، الأصدقاء يجهزون كل شيء لمنصور، ملابس، أحذية، حقائب، دفاتر، منصور يستعد لمرحلة جديدة الثانوية.

يتم قبوله بالمدرسة الثانوية بكسلا على بعد 50 كيلو من قريته، إنها الثانوية النموذجية التي تقع على يمين الثانوية بنات يفصل بينهما سكن المعلمات.

ترك منصور قريته والتحق بالثانوية الداخلية وحيدًا ممثلا لقريته، ممتلىء الذاكرة بالأهل والأحباب الأصدقاء، مجالس القرية، إدريس ومؤتمره، إنها الأقدار.

يذهب صباحًا إلى المدرسة، وفي المساء يعمل بأحد الأفران البلدية عسى يجد مالًا قليلًا يشتري به هدايا لإخوانه، وحتى يساعد والده في نفقات دراسته.

يكمل منصور عامه الأول محرزًاالدرجات، كثيرون لا يعرفونه جيدًا، يدهشون من النتيجة التي للمرة الثانية لم يحضرها بسفره إلى قريته، لم يزر قريته طيلة العام الدراسي الأول، إخوته يستقبلونه بكل فرح وسرور، والده يضمه إليه فرحًا بابنه، والدته يتهلل وجهها.

يأتي منصور ومعه هداياه لإخوته وبعض أصدقاء الأمس، القرية تحتفل به، لا يمشي أمتارًا معدودة إلا ويوقفه شخص من

أجل التحية، زملاؤه يتبادلون معه أطراف الحديث عن المرحلة الدراسية الجديدة، منصور يشرح ويقدم لهم تفاصيل يومه الدراسي، إدريس يرحب به ويقدم له كرسي:

اجلس هنا أيها النابغة.

وكعادة أهل القرية يجدهم أمام برنامجهم الثابت راديو إدريس.

يذهب لمساعدة والده بالزراعة صباحًا وفي المساء يتنقل مع أصدقائه بالقرية، ويقضي إجازته، ثم يعود إلى مدرسته في رحلة شاقة جدًا لانعدام المواصلات والموسم موسم خريف، حيث كثرة الأمطار، ومناظر الوديان مكسوة بالخضرة على جانبيها، والماء يجري بين جنباتها حيث الخرير يسمع من مسافات.

يتنقل منصور مستخدمًا التراكتورات الزراعية من منطقة لأخرى في رحلة شاقة جدا، وبينما هو بأطراف المدينة يقابله أحد زملائه بالمدرسة.

- مرحبًا منصور، الجميع يسأل عنك لأنك أحرزت أعلى الدرجات.

يبتسم منصور، فيسأله زميله:

- أين تسكن أنت يا منصور؟

- بالداخلية.

- إذًا ستنزل عندي ضيفًا وأعرّفك على أهلي.

- لا مانع.

- ولكن نذهب إلى الداخلية أولًا، وأسجل حضورى حتى أضمن ترتيبات السكن وأكمل الإجراءات.

يذهبان إلى الداخلية، وينهي منصور كل إجراءاته بسهولة ويسر، ويجد معاملة ممتازة لأن الجميع قد عرفه، بل ظل الأساتذة يتحدثون عن أن هذا الطالب سوف ينافس باسم المدرسة على مستوى المركز في امتحانات الثانوية العليا.

يذهب مع صديقه إلى بيته ويمضي معه يومًا، بينما في الصباح يخرجان معًا إلى المدرسة، وإذا هم بالمحطة في انتظار المواصلات، إذا لمياء طالبة بالصف الأول الثانوي جارة صديقه تلقي التحية عليهم، ويتبادلون أطراف الحديث ويعرفها على منصور باعتباره طالبًا مميزًا وقائد الدفعة.

لمياء تنظر إليه بتعجب، كل يذهب إلى مدرسته، لمياء إلى الثانوية بنات ومنصور وصديقه إلى الثانوية بنين.

الأساتذة يرحبون بمنصور ويطالبونه بمزيد من الاجتهاد من أجل تحصيل أعلى الدرجات العلمية، لمياء تفكر من النظرة

الأولى، وتستحي أن تسأل جارها عن صديقه، تحرص مساء كل خميس على زيارة جارها عسى ولعل يكون منصور ضيفًا، تصفه لزميلاتها بأنه كذا وكذا، وكأنها تعرفه من سنين طويلة، بينما منصور لايعرف عنها شيئًا سوى أنها طالبة بالصف الأول جارة زميله.

لمياء تحاول أن تخفي حبها ولكن دون جدوى، ففي يوم من الأيام طلبت من جارها عبد الصمد دفتر الرياضيات الخاص به للصف الأول، حيث إنها تعاني ضعفًا في هذه المادة، جارها يرد عليها:

- للأسف ليس لدى أيّ دفتر.

- إذن هل باستطاعتك أن تراجع معي الرياضيات؟

- علاقتي بالرياضيات ضعيفة.

- طيب هل بإمكان صديقك أن يساعدني؟

- إذًا سأحاول أن أبحث عن أحدهم.

يقنع عبد الصمد أحد أصدقائه بضرورة تقديم المساعدة لها، يقع اختياره على ابن الحي إبراهيم، يذهبان إلى لمياء من أجل المراجعة.

لمياء تتذمر وتجلس على مضض، يفتح صديقه كتاب الرياضيات، تتدخل لمياء:

- لا فأنا مشكلتي باللغة الإنجليزية فقط.

عبد الصمد: ألم تقل لي الرياضيات؟

- ربما أخطأت.

- كيف تخطئ وقد كررتَ لي هذا السؤال أكثر من مرة؟

لمياء ترتبك.

- عبد الصمد أمامنا حل واحد ألا وهو منصور.

يعتذر لصديقه ويعدها بأنه سيأتي غدًا ومعه منصور.

خوفي أن تكون غدًا مشكلتك في الفيزياء.

- أبشر أخي إنجليزي فقط.

يخبر صديقه منصور:

- أنا محتاج منك مساعدة حيث هنالك بنت جارتنا لديها مشكلة في اللغة الإنجليزية.

منصور: حاضر.

يتفقان في المساء، منصور سيضحي بعمله اليوم من أجل صديقه، ويبلغ صاحب الفرن ويعتذر له.

عبد الصمد ومنصور في طريقهما لمنزل لمياء، يشرح له أنها بنت غاية في الجمال، أبوها رجل أعمال:

- أعتقد أنك قابلتها معي قبل فترة.

منصور: لم أنتبه.

يطرقان الباب.. والد لمياء:

- تفضلا!

يدخلان إلى المجلس، يقدم له الضيافة بنفسه، يسأل عبد الصمد عن أخبار والده، وأنه لم يتمكن من زيارته خلال الفترة الماضية لارتباطاته العملية، ويسأل عن صديقه من أين؟

فيجيبه عبد الصمد: منصور طالب إريتري معنا بالمدرسة.

- ما شاء الله! موفَّق يا ابني.

كلنا إخوة، فليست الحدود إلا رسم مستعمر.

منصور: هذه حقيقة ولكن ماذا بنا؟

يدخل منصور ويقابل لمياء الفتاة الوحيدة لوالديها شديدة الجمال، وهي ترحب به بينما عبد الصمد ووالدها يجلسان هنالك.

بدأت تتقرب من منصور وتتودد منه، وتذكّره باللقاء الذي جمع بينهما، ومنصور لم يتذكر ولن يتذكر شيئًا، بل ظل شارد الذهن، وهي تقدم له كل خطوات العشق دون جدوى.

والدها هناك يسأل عبد الصمد: لقد رأيت هذا الطالب ولكن لست أدري.

عبد الصمد: سأستفسر منه.

لمياء تحتفل بمن أحبت ومنصور يدخل أجواء الغرام خطوة بخطوة، يكمل معها الجلسة وأمامهما دفتر ليس به شيء سوى موعد للقاء آخر.

أعطته خيوطًا أحبها وبدأ ينسجها في خياله.

– الجمعة القادمة نلتقي بكافتريا توتيل.

موعد لا مجال لنسيانه.

تودِّعه.

يذهب إلى حيث صديقه ووالدها المجلس.

عبد الصمد يسأل صديقه:

– عم أحمد يسال أين يكون قد التقاك؟

يضحك منصور:

– أنا أعمل بأحد أفرانك في الفترة المسائية وأسلمك في بعض الأحيان الخبز حينما تأتي متاخرًا.

- يا سلام أنت هذا؟!

يهز عبد الصمد رأسه:

- صديقي مجتهد جدًا يذاكر دروسه ويعمل كلما استطاع رغم إرهاقه الشديد، عمومًا هذه الحياة فلابدَّ فيها من الكفاح.

عم أحمد يبلغ وكيل الفرن:

- أوقف منصور عن العمل وأعطه يوميًا أجر عامل.

يذهب منصور إلى الفرن فيبلغه الوكيل:

- أخي أنت ارتاح قليلًا فلك خياران لا ثالث لهما، إما أن تأخذ راتبك يوميًا أو شهريًا، فصاحب العمل أي المالك أصدر هذا القرار.

كيف لي أن آخذ راتبًا وأنا لا أعمل؟!

تمضي الأيام ومنصور مهموم بلقاء لمياء، وهي الأخرى تفكر ألف مرة في اليومَ وتبحث عن الحيل للقائه.

يأتي اليوم الموعود.

يذهب منصور إلى كافتيريا توتيل يجلس في انتظارها، تأتي لمياء متأخرة وتعتذر، يجلس الطالبان وهما في بداية العمر

والمراهقة، يبوحان بأسرار الأسبوع من اللقاء الأول، تشرح كيف استخدمت الحيل حتى تلتقي به.. ويبلغها:

- إنني كنت أعمل في المساء بأحد أفران والدك والآن أوقفوني وسيعطونني راتب عامل.

يا للصدفة!

يودعان بعضهما البعض على أمل اللقاء في الأسبوع القادم.

تسأل والدها عن منصور العامل، يشرح لها أنه مكافح، ويستحق أن تقف معه وهذا واجبنا الإنساني تجاه جيراننا.

نعم جيراننا.. تردد لمياء.

- والده منصور من إريتريا وبلده في حالة ثورة.

لمياء تتعجب حيث إنها لا تعرف هذه الفروقات.

وكل مرة على أمل اللقاء.

ينتهي العام الدراسي، يدخل منصور عامه الثالث فهو مقدر، وعليه آمال قرية كاملة ووطن.

لمياء ترسم ملامح المرحلة القادمة لحياتها، وتمضي بهم السنون، منصور يأتي نهاية كل شهر يتسلم راتبه، وعم أحمد يقدم له الدعوة من فترة لأخرى بمنزله، بل يعامله كأحد أبنائه، ويتجهز

لامتحان الشهادة، القسم العلمي تخصص أحياء، وفي الإجازة كعادته يذهب إلى قريته حيث الحياة ومتعتها، إدريس ورفاقه يتابعون الراديو، قريبًا ستعلن نتائج امتحانات الشهادة.

– الله! الله!

منصور ضمن المتفوقين كعادته، القرية تبتهج، تقيم احتفالات، أحد أبنائها في المقدمة على مستوى السودان.

العم أحمد يتحرك إلى قرية منصور ومعه بعض أعيان المدينة، المحافظ مدير التعليم.

القرية أصبحت مزارًا، الكل يأتي ويبارك.

عم أحمد يتبني منصور، يجلس منصور بجوار رجل الأعمال مستفسرًا عن أصدقائه بالعمل ورفاق الأمس.

لمياء مع والدها وكذلك عبد الصمد ووالدتها ومعهم شاب اسمه النور، يباركون لمنصور هذا التفوق العلمي.

في المساء يودعون منصور عائدين إلى كسلا، يحاول أن يستفسر عن أحوال لمياء ولكنه يستحي، وهي تحاول الخلوة به ولو لدقائق، فهي تريد أن تبلغه بأن هذا الشباب ضاغط على والدها من أجل زواجها وهو ابن عم لها قادم من أمريكا ولكنها ترفضه

بشدة، إلا أنها ليس لديها سبب مقنع لذلك، وأن والدها يريد تزويجها له، كما أن مشوار منصور طويل، هي لا تريد أن تعطله، وعاشت على أمل أن تجد مخرجًا لنفسها، علمًا أن منصور لو تقدَّم لها فإن والدها أول من يرحب.

تركت خطابًا لصديقه عبد الصمد توضح فيه لمنصور ما يجري له، وتطلب منه ضرورة الإسراع لإنقاذها، إلا أن عبد الصمد أضاع الخطاب.

عدو الأمس صديق الغد

حامد طفل في الخامسة من عمره، توفيت والدته وهو في الرابعة، وعاش متنقلًا بين خالاته وله ثلاثة أخوة، أخوان شقيقان وآخر من جهة أمه؛ فوالدته كانت قد تزوجت من قبل بابن خالها؛ فأنجبت منه بكرها عمر قبل أن يخرج ابن خالها في رحلة عمل ولم يعد، وظلت في انتظاره سبع سنوات، وبعدها جاءت أخبار تفيد بوفاته مقتولًا في إحدى المناطق الريفية البعيدة.

سبب الوفاة كان مجهولًا، وبعد سبع سنوات دخلت في عدتها مودعة بذلك أعوامًا من الانتظار؛ فتزوجها والد حامد وأنجب منها ثلاثة أطفال، وتوفيت من بعدها، عاش أخوهم الأكبر مع أعمامه في بيت آخر يتيم الأبوين.

كان والد حامد متزوجًا من أخرى قبل الزوج من أمهم فأنجب منها طفلين ولدًا وبنتا، ثم اختلفا ووقع الطلاق فأصبح لحامد أخوة آخرون من ناحية الأب.

توفي الأخ الأصغر لحامد وهو طفل في شهوره الأولى، وكذلك أخوه الآخر من جهة أبيه.

كانت ماسأة الأسرة التي تبعثرت بين الأهل؛ فقرر والد حامد إعادة زوجته الأولى بعد تسع سنوات من الفراق، فهي الأخرى رفضت العديد من الرجال الذين تقدموا للزوج منها، فبذلك

اجتمعت العائلة، حامد وأخوه الأصغر، وكذلك أختهم التي تكبرهم بأعوام عدة.

حامد وأخوه صغار لا يعرفون شيئًا عن والدتهم، كما أن أخاهم الأكبر من ناحية والدتهم هو الآخر لم يلتقِ بهم لصغر سنه من ناحية ولبعد المسافة من ناحية أخرى.

عاش حامد وأخوته في كنف والدهم وزوجة والدتهم، والتي عرفتهم بأنها أمهم، ولصغر سنهم وبعدهم عن خالاتهم وانقطاع الزيارات العائلية لفترة من الزمن ظلوا ينادونها بأمهم.

حامد يسأل: هل عندما كنا صغارًا كانت تأتينا زيارات من قبل بعض أخواتك؟

زوجة الوالد: نعم أخواتي الآن أطفالهم كبروا وانشغلوا بالمراحل الدراسية.

حامد يسأل: سمعت من إحدى نساء الجيران تسأل أين أخوكم؟

زوجة الوالد: من هي التي تسألك هذا السؤال؟

ولكن أخاكم في المدرسة الثانوية، وسوف يكون معكم قريبًا بإذن الله.

وفي المساء تخبر الزوجة زوجها بأن لدى حامد أسئلة كثيرة.

يرد زوجها إدريس: سوف يأتي اليوم الذي يعرف فيه كل تفاصيل أسرته.

الزوجة: هنالك من نساء الجيران من يعمل على زرع الفتن بيننا.

الزوج: لا تهتمي كثيرًا بالأحاديث العابرة.

ظل حامد يتذكر بعضًا من أيام طفولته الأولى وتنقله بين الأهل، ولم يجد إجابة شافية لتلك الطلاسم التي تدور حوله؛ فزوجة والده معروف عنها سوء المعاملة، ويشهد بذلك كل الجيران، بل تعمل على أن يكون أخوه الأصغر قريبًا جدًا منها، لأنه ببساطة لا يعرف ولا يتذكر شيئا من الماضي؛ فوالدته حينما توفيت كان في الثالثة من عمره.

لاحظ حامد أن هناك اختلافًا في معاملة زوجة والده له بخلاف أخته وأخيه، فكانت زوجة الوالد تقدم كوب الحليب باستمرار في الليل لابنتها وابن زوجها الصغير.

وذات يوم استيقظ حامد من النوم فما كان منها إلا أن قالت له :

- ارجع إلى سريرك.

فبكى حامد.

كان والده في زيارته لإحدى المناطق القريبة في تلك الليلة، وفي الصباح سأل حامد شقيقه الأصغر: لماذا أمي تعطيكم

الحليب، وأنا لا تقدم لي ذلك؟! فكان رد ذلك الطفل: توقظني أمي كل يوم وتقدم لي الحليب.

امراة الزوجة أرادت بذلك أن تقدم درسًا لهذا الطفل المتمرد عليها منذ الأيام التي توجه لها بأسئلة، زوجة الوالد في الغالب العام تميل لأطفالها، متناسية تلك الأمانات التي تركتها لها الزوجة الأخرى، قد تكون هنالك زوجات لا يعملن على التمييز بين هذا وذلك، ولكن الغالبية العظمى منهن أنانيات، فقد تكون أم بديلة قد تربيك ولكن ليست بدرجة أمك، قد تكون حنونة عليك بعض الوقت من خلال عاطفتها، ولكن من المستحيل أن تعطيك دفء وحنان الوالدة.

أنجبت من زوجها عددًا من البنات مثنى وثلاثًا ورباع، ولم تنجب ولدًا، مما جعلها أكثر عدوانية تجاه حامد، وحامد قريب جدًا من والده الذي يكن له حبًّا.

حامد يذهب مع والده في الأسواق حتى صار صديقًا له، بل إن والده أصبح يمده ببعض المعلومات عن حياة والدته، وعن أخيه الصغير الذي توفي في أيامه الأولى، وكذلك عن أخيه الأكبر من زوجته التي معه، ويمده بذكريات أيام التنقل مع خالاته.

بدأ حامد يكوِّن فكرة عن زوجة أبيه شيئًا فشيئًا، بينما أخوته كان من بينهم من يحبه ومن يلعب معه، وفي ذات يوم عندما زارته خالته التي قضى معها أيامًا من طفولته الأولى، أي بعد وفاة والدته، لم تحسن زوجة أبيه استقبالها، والوالد كان بالسوق، فيذهب إليه حامد مسرعًا: أبي هناك أمراة ضيفة عندنا في البيت، وحينما سألتها قالت لي أنا خالتك.

خرج الوالد مسرعًا من السوق متجهًا نحو البيت، فإذا بخالة حامد جالة تأتي ولم يهتم بها أحد، بل لم تكرمها زوجته، وحينما حضر زوجها بدأت في إعداد بعض الأشياء لها من تقديم الضيافة، فيجلس الوالد بجوار أخت زوجته القديمة، يسلم عليها مستفسرًا عن جميع معارفه السابقين، والخالة تجيب، كانت الخالة قاصدة قضاء إجازةً جميلة مع أبناء أختها، وذلك بعد مرور أعوام على وفاتها، إلا أنها لاحظت سوء المعاملة من قبل تلك الزوجة لأبناء أختها، فلم تستطيع تحملها.

تجمعت أفكار جديدة لدى حامد من خلال الحوار الذي دار بين والده وخالته، وعرف بأن له خالًا في بلاد المهجر هو الآخر له عدة أعوام لم يأتِ لزيارة أهله، ولكن خلال هذه العام ربما يسجل لهم زيارة وأن أخاه الأكبر هو الآخر أكمل دراسته الثانوية سوف يكون برفقة خاله في تلك الزيارة.

خلال تلك الزيارة، تأكد حامد أن هذه المرأة التي يعيش معها ما هي إلا زوجة الأب التي تقوم بواجبها من أجل إرضاء والده، وأنها ليس لها ضمير إنساني، وبدأت الخلافات تدب علانية بينه وبين زوجة أبيه، مما أثر على علاقته بأخواته.

وظلت زوجة الأب توصِّل كل معلومة صغيرة وكبيرة لزوجها بهدف خلق شرخ بينه وبين ابنه، إلا أن الوالد كان يقر كل تحركات حامد في ذلك الوقت ولعلمه بزوجته جيدًا.

عرف حامد من جيرانه الذين يكنون لزوجة أبيه كل الكراهية نتاج تصرفاتها السيئة مع هذا الفتى، وكذلك عدم مشاركتها في أي مناسبة اجتماعية صغيرة كانت أم كبيرة، متى توفيت والدته وفي أي عام، وكم كان سن أخيه الذي توفي في ذلك الوقت.

والأسوأ من هذا كله كانت أمها التي تأتي في زيارات متقطعة لابنتها، لم تعطِ أي إحساس لحامد بأنها جدته، بل كانت تضمر له كل كره؛ وذلك لعلاقته الحميمة مع والده.

دخل المدرسة الابتدائية كان قبلها يدرس تلاوة القرآن الكريم، وحفظ جزءًا منه، وفي ذلك العام زارهم خالهم القادم من بلاد الغربة ومعه أخوهم الأكبر سنًا.. حامد وأخوه يلتقيان لأول مرة.

بدأ خالهم بتقديم الهدايا، وأخذ الصور مع أبناء أخته، فكان منظرًا جميلًا، بالإضافة إلى زيارات الجبران له في المساء وذكرياته مع الجميع.

خلال تلك المدة التي كان يأتي فيها يهتم بأبناء أخته، يذاكر لحامد، يوجهه بين الحين والآخر، وفي الصبح يذهب حامد إلى مدرسة ويظل أخوه إبراهيم مع الضيوف.

حامد في شوق كبير حتى ينتهي اليوم الدراسي لمقابلة أخوته، يرتدي كل يوم ثوبًا جديدًا فرحًا به، جيرانه يحمدون الله على سعادته التي لم يجدوها على وجهه طوال تلك السنوات.كم جميل أن يضيء وجه حامد بهذه الفرحة المفقودة، كم سيجازي الله هذا الخال الذي جمَّع بين أبناء أخته بعد فراق طويل.

يودِّع الخال والأخ الأكبر الأهل في انتظار العودة إلى ديارهم.

تركت هذه الزيارة انطباعًا جميلًا لدى حامد، وكذلك بدأ إبراهيم يتعرف شيئًا فشيئًا عما يربط بينه وبين حامد، كان حامد ملازمًا للديوان طيلة زيارة الخال وأخيه.

بدأت زيارات الأخ الأكبر تتكرر عامًا بعد الآخر، ومن الخالات من سجل زيارات أخرى.

عاد الخال إلى عمله بالديار الغربية ولم تنقطع الهدايا عن حامد وإبراهيم بل حتى أخواتهم غير الشقيقات، زوجة الوالد لم يعجبها شيء، كانت كل تعليقاتها عن كل ما يقدم لبناتها بالنقد، وظلت تعمل على خلق هوة بين أبناء الرجل الواحد.

تدرَّج حامد في الدراسة، وكان من المتفوقين جدًا، وكذلك إبراهيم هو الآخر من الطلاب البارزين.

إبراهيم هادئ جدًّا في طباعه، عكس حامد الذي يمتاز بالمشاكسة، وبينما هم في هذه الحالة إذا بنبأ وفاة خالهم يأتي، كم كان هذا الخبر محزنًا لحامد وأخيه لشعورهم المؤلم بالفقدان، هو ذلك الخال الأكبر الذي تزوج من زمن ولم ينجب، وتدرَّج في المراحل التعليمية إلى أن أكمل تعليمه الجامعي.

حالة من الحزن تسيطر على حامد، فاليوم فقد سنده الأهم، خاله الوفي.

تمر الأيام ويتجرع حامد مرارة الفراق، لكن في كل مرة كانت زوجة الوالد تذكر بناتها بألا يعتمدوا على هذين الأخوين:

- أتمنى أن أنجب لكم أخًا يكون لكم سندًا، هذان ربما يقدمان لكم السند بوجود والدكم، ولكن لا قدر الله إن مات والدكم فسيكون مصيركم مجهولًا.

تتكلم الزوجة وكأنها حاصلة على ضمان بقائها على قيد الحياة.

ظل حامد وأخوه أكثر تمسُّكًا بأبيهم من أي وقت مضى، هنالك من أخواتهم من يكن لهم كل احترام وتقدير، غير مهتم بحديث ومواقف والدتهن، تدرجا في سلم التعليم حتى أكملا المراحل الجامعية، وظلا يقدمان المساعدة لوالدهم الذي كبر في السن.

تزوجت أختهما الكبرى فأنجبت طفلًا، وكان دور جدته في خلق القلاقل بين بنتها وزوجها، وحدثت صدامات كثيرة لدرجة أن العائلة شعرت أن مهمة هذه المرأة عدم الاستقرار، فهو شعار ترفعه في وجه كل من تراه مستقرًا.

تزوج أخوهم الأكبر من إحدى أقاربه فكان ذلك الفرح عبارة عن حزن فأعمامه تذكروا أيام كانت والدته على قيد الحياة، وخالته ظلت في بكاء، في منظر خلا من الفرح في ذكريات أختهم، كانت أخوات حامد حاضرات وشاركن في هذا الزواج.

مشهد تتقطع له الأفئدة، إدريس هو الآخر دخل في نوبة هستريا من البكاء، من خلال ما شاهده من أعمامه؛ فإدريس لا يعرف عن والده شيئًا، ولكن يتذكر والدته جيدا، لم تكن زوجة الوالد حاضرة بينهم في تلك الأمسية، حامد على علاقة حميمة مع إحدى عماته

التي كانت تسجل لهم زيارات في أيام الطفولة، عمته هذه كانت علاقتها جيدة بوالدة حامد في بواكير زوجها من أخيها.

هذه العمة في إحدى زياراتها لهم كانت معها أختها التي تكبرها، وكان معهم عدد من أطفالهم في تلك الزيارة من بين الأطفال إحداهن ذات ربيعها الخامس، وكان حامد حينها بالثانية عشرة من عمره.

كان حامد معجبًا جدًا بتلك الطفلة التي وجد فيها حنان الأخوة المفقود، كانت الطفلة تميل إلى خالها والد حامد، الذي كان يسجل لهم زيارات بين الحين والآخر، خاصة أن والد حامد على علاقة طيبة مع جميع أخواته وأخوانه، بل يعتبر أكثرهم تواصلًا.

والد حامد هو الآخر ليس لديه أخت شقيقة؛ فوالده متزوج من أكثر من امرأة، ولكنهن عشن معه في بيت واحد يجمع بينهم الود والاحترام.

وفي هذه الزيارة في يوم من الأيام والأخوة والأخوات مجتمعون في جلسة مسائية يتناولون أكواب الشاي، الوالد يسال حامد:

- اختر بين بنات عماتك خطيبتك المستقبلية.

حامد: أنا اخترت هذه الصغيرة ذات الخمسة أعوام.

والدتها: مبروك فأنا بإذن الله سوف أحجزها لك.

الوالد: غدًا أنتِ مسؤولة عن هذا الكلام؟

تضحك أخته: نعم سوف أبلغ زوجي بهذا الأمر.

يأتي الدور على إبراهيم فيسأله والده:

- اختر من تراها خطيبتك؟

إبراهيم: لست من يختار الآن، فأنت يا أبي اختر لي، ولكن ليس الآن إنما في المستقبل.

ينفض المجلس والكل قد بارك لحامد هذه الطفلة التي لا تدري شيئا عما يدور.

زوجة الوالد -ملكة المشاكسات- ترد:

- هذه الاختيارات لن تصدق؛ فهم أطفال ويجب ألا تأخذوا الأمر بهذه الجدية.

زوجها يرد عليها:

- توكلي على الله، فإن كانت بينهم القسمة سوف يجتمعون حتمًا وأنا أمني النفس بأن تكون زوجة ابني حامد.

عمته الأخرى:

- أرجو أن أحضر زواجهم.

الوالد: هؤلاء أمانة أمهم، ربي يوفقني لإتمام فرحهم.

نشأت علاقة طيبة بين هذه الطفلين وبدأ جميع الأهل يتحدث عنهما في انتظار أن يكبرا ويتوج ذلك بإتمام الفرح.

تمضي السنون، ويلتقيان في فترة في آخر مناسبة من مناسبات العائلة، تكبر بنت العمة ويتقدم لها الخطّاب واحدًا تلو الآخر، أبناء عماتها مرفوضون جملة وتفصيلًا، أبناء عمها ترفضهم واحدًا تلو الآخر، وفي داخلها تردد: عسى الله ألا يفرقنا.

أما حامد فهو الآخر يسابق الزمن من أجل إتمام نية والده، وتحقيق حلم الطفولة، خاصة أن المسافة قريبة جدًا بينهم والتي أثقلتها الأيام، وحديث الأهل في الطفولة كان له الأثر الطيب في نفسي الطفلين.

كانت دومًا وهي ترفض من يتقدم إلى خطبتها تردد أنهم مثل أخواتها، ولا يصح أن تتزوج من تعتبرهم مثل أخواتها.

زوجة الأب ترفض أن يتم هذا الزواج، وتحاول أن تقنع حامد يومًا بعد يوم، بل تنشر الأخبار بما يفيد أن حامدًا قد لا يتزوجها وأنه على علاقة بابنة خالته.

حامد يرفض هذه الأخبار، ويؤكد بأنه إن شاء الله سوف يكمل الحلم الذي طال انتظاره، وأنه لن يخذل والده وعمته ومن قبلهم بنت عمته التي انتظرته طويلًا.

في أحد الأيام فاتحَ حامد والده، وأنه قد رتب كل أموره في انتظار أن يتقدم لابنة عمته، وأن يكون الزواج في أقرب فرصة ممكنة؛ لأنه بدأ يفكر في الاغتراب، ولكن بعد إتمام الزواج فرح الوالد فرحًا شديدًا.

أبلغ أخوته وحدد موعدًا من أجل الذهاب إلى أخته ومقابلة زوجها، فقد حدد اليوم الذي سوف يذهبون فيه، وتمت إجراءات الخطبة الرسمية في سرية تامة، بل تم تحديد مدة شهرين، وسوف يتم خلالها عقد القران، أي زواج بنت عمته التي كانت تمني النفس بتلك الليلة، ليدعو الجميع بأن يمد الله في عمرهم لإتمام الخبر السار.

أخوال وخالات حامد رحبوا بالفكرة، وكان من بينهم من ذهب لحضور الخطبة، وتم تحديد يوم الفرح ووزعت كروت الدعوة، وبلغ جميع الأهل والأقارب فكان زواجًا مثاليًا بامتياز.

وفي يوم الـزواج اجتمعت الخالات والعمات في انتظار المباركة للزواج، وأما حامد، فما كان منه إلا أن أجهش هو الآخر بالبكاء في حضوره، كيف لا؟! وقد نظر إلى خالاته، لقد تذكر أنه فقد عزيزًا في هذا اليوم.

تم الزواج وذهب حامد إلى إحدى دول المهجر وترك زوجته أمانة لدى والده متنقلة بين أهلها وبيتها حتى يتمكن من استخرج الأوراق الرسمية، والتحقت به في دار الغربة مكملًا بذلك فصلًا طويلًا من التشويق والانتظار.

زوجة حامد هي الأخرى تحملت إساءات ومعاكسات زوجة الأب النكدة من أجل خالها وزوجها، بل كانت على قناعة بأن هذه مرحلة وسوف تنتهي بلقاء زوجها، فكان لها ما أرادت.

الأقدار قد ينطقها الإنسان في لحظة ما، وقد تتحقق.

وجاء دور إبراهيم الذي قد قطع عهده مع والده وهو صغير بأن يختار له شريكة حياته.

والده يستشير أخوات أبيهم: ساعدوني في الحصول على زوجة لإبراهيم، إحداهن تشير إلى إحدى الفتيات والتي قد جاءتها زيارة في منزلها قبل فترة ليست بالقصيرة.

الوالد يسأل عنها، يعرف والدها وكذلك والدتها، فيقوم بزيارتهم ومعه إبراهيم، أسرتها ليس لديها أي مانع، الوالد يقوم بالخطوات الرسمية للخطوبة، الفتاة توافق، الكل مرحب، أخوات إبراهيم مرحبون، ولمَ لا؟! وقد كان الخيار لإحدى حمواته،

ولكن ذلك أغضب خالات إبراهيم؛ تزوج إدريس من خارج أهل أمه، فتبعه حامد، والآن يخرج إبراهيم.

والده يرد: هذا خياره.

إبراهيم: خالاتي نعم لم أشاوركن.. لكنني كنت قطعت عهدًا على نفسي بأن لا أخرج عن خيار والدي وأنا طفل، فكيف لي أن أخالف ذلك الوعد الآن؟!

ويعمل إبراهيم على إرضاء خالاته فيوافقن، ويتم الزواج بهدوء ويسر، وكالعادة حضر جميع الأهل، وزوجة الوالد هنا بدأت تمثل دور الأم الحنون.

ذهب إبراهيم وزوجته في رحلة شهر العسل إلى إحدى المدن، وبمجرد عودتهما بدأت المشاكسات بين زوجته وأخواته، دخلا في مشاكل حيرت كل من سمع بها، الكل يسأل ألم يكن اختيار خالاته؟!

أخته: لقد استعجلت في الأمر يا إبراهيم، هذه الزوجة غير مناسبة لأخي إبراهيم.

وقف في وجههن وتضامن مع زوجته، وظل والده كبير السن الذي يعاني من بعض الأمراض المزمنة في دوامة الخلافات بين

هذه الزوجة وكذلك بناته، وقد حاول الوالد المغلوب على أمره كثيرًا من أجل ألا تتكرر الأخطاء ولكن دون أن يوفق في ذلك، فكان القرار بأن يتم الفصل بينهم في كل شيء، حتى حدود البيت تكون معروفة لكل طرف.

ألم يكن إبراهيم ذلك الفتى المدلل القريب جدًا من زوجة أبيه؟ ما الذي جرى؟ وماذا حدث بينه وبين أخواته؟ أحدهم يسأل.

حامد يتدخل بين فترة وأخرى بالاتصال بجميع الأطراف من أجل لم شمل الأسرة، ولكن دون أن يتغير شيء.

انتقل الوالد إلى رحمة مولاه، وتكفَّل حامد بدور الوالد، وظل يتابع أخواته حتى زواجهن واحدة تلوى الأخرى، وظل قريبًا منهن، بل يسجل زياراته المتكررة.

فأنت لست من تختار ما قدر لك، ولكن الأيام وحدها من تحدد ذلك، فلا تدري متى تموت، ومن سيكون من مشيعيك، ليت زوجة الوالد فهمت ذلك، فمن كان بالأمس عدوًا أصبح اليوم صديقًا يعتمد عليه.

***

اغتيال المستعمر

في بداية ثمانينيات القرن الماضي، حينما كانت الساحة الإريترية في مرحلة هدوء تام بعد الانسحاب الاستراتيجي للتنظيمات الإريترية تحت الضغط العسكري القوي للعدو الإثيوبي المدعوم من المعسكر الشرقي حينها عدةً وعتادًا.

فالاتحاد السوفيتي ومن معه أسهم في تقوية أثيوبيا عسكريًا وماديًا مما أجبر الثوار الإريتريين على الانسحاب إلى المناطق الخلفية، واتخاذ دفاعات قوية لحماية ما تبقى لها من عدة وعتاد.

وبعد أن كانت الثورة الإريترية ممتدة في طول البلاد وعرضها، والمدن الإريترية تسقط يومًا بعد يوم في أيدي الثوار، وحلم الشعب الإريتري يتجدد بالاستقلال، إلا أن عدم التنسيق بين الثوار كان عاملًا مهمًا لهذا الانسحاب.

ونتيجة لهذا الانسحاب الاستراتيجي ظهرت الخلافات بين بعض القادة الإريتريين، وشكَّل هذا عبئًا ثقيلًا على معنويات الجنود الذين يتساءلون كيف ننسحب ونحن على مشارف العاصمة أسمرا؟!

فهنالك تنظيميات بقيت بالساحة الإريترية وأخرى انسحبت إلى داخل الأرضي السودانية تاركة الساحة للتنظيمات الأخرى.

إن أي تنازل يبدأ دومًا بخطوة إلى أن تفقد كل المساحة.. ليتهم لم ينسحبوا!

تفرقت الثورة الأم في بقاع الأرض بين من ترك النضال وبين من بحث عن مصالحه الشخصية، وكان من اتخذ قرار الانسحاب كان يريدها هكذا!

فالأحلام تبددت، واليأس دخل نفوس الجنود البواسل.. إنها جرعة الحماسة الزائدة، وبدخول الثورة الإريترية إلى الأراضي السودانية اتضحت النوايا الحقيقية لأعداء الثورة، فكان هدفهم تفتيتها وإفقادها القدرة على التماسك، وقد حاول كثيرون من قادتها الشرفاء إعادتها ولكن دون جدوى.

بعض القادة لا يمكن أن تحدد دوره ومهامه هل هو عسكري أم سياسي! فقد كان متسلطًا ويعمل على بسط سيطرته وإدخال سياساته الخاصة ومفاهيمه من أجل أهداف شخصية، وآخرون وصلوا إلى أعلى مراتب القيادة بسرعة البرق، ومن دون أي تجارب تذكر وما بين هذا وذاك كانت الثورة ضحية أخطاء فردية وجماعية عسكرية وسياسية.. إن من لم يخطط لمسيرة حياته الشخصية كيف له أن يخطط لإدارة أمة؟!

وانقسمت الثورة بعد ذلك إلى ولاءاتٍ ضيقة، وأصبحت الانشقاقات صفةً ملازمة لها طيلة هذه الفترة، بل إن الهدف الأسمى للثورة أصبح بعيد المنال، ودخلت توازنات أخرى أضرت كثيرًا بالقضية وكوَّنت ترسباتٍ أخلاقيةً واجتماعية سيعاني منها الشعب الإريتري لفترة أخرى وربما لأجيال.

أي عمل غير ممنهج، ويدار من دون مؤسسية إدارية يصبح وبالًا، وإن إدخال العواطف في القضية العامة يعني إدخال نفق الفشل ويصعب تداركها إلا من خلال عمليات بتر قوية لتبعاتها.

عاشت التنظيميات الإريترية، بعد تلك المرحلة، على واقع المناكفات فيما بينها وبث روح الإشاعة والأخبار الكاذبة والهزيمة النفسية في صفوف منتسبيها، وإصدار منشورات تطبع بالليل وتوزع بالنهار تحكي عن معارك وهمية حدثت مع العدو الإثيوبي وآخر ينفي تلك المعركة العسكرية ويؤكد أن قواته كانت على مشارف جبل النعام، وما حدث كان عبارة عن مسرحية هزيلة الإخراج فكان التخوين المتبادل بين للتنظيمات الإريترية، وآخرون يروِّجون لإشاعات تضر العمل العسكري، بل تقدح في بعض الوطنيين من القادة.

هنا عاش اللاجئ الإريتري فترة حرجة يكسوها اليأس من أفعال قادته العسكريين والسياسيين، وأفقدهم السيطرة حتى

على تصرفاتهم البسيطة، وأصبحت المسافة شاسعة بينهم وبين مواطنيهم، بل قلة اللقاءات التي كانت تعج بها الساحات في سبعينيات القرن الماضي، فلم يكن هناك جديد يمكن أن يقدموه، وأصبحت مقاهي ومجالس معسكرات اللاجئين الإريتريين تعج بالصراعات بين الموالين للتنظيمات الإريترية.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة قدم إلى معسكرات اللاجئين الإريتريين أحد التنظيمات الإريترية قائد مرموق بجبهة التحرير الإريترية، والذي كان ضمن من أخفقوا ودخلوا إلى الأراضي السودانية محتميًا بها من ضربات التنظيمات الأخرى، وقد تم أسره من قبل القادة العسكريين أصحاب الخطوة التصحيحية لإعادة الثورة إلى وضعها الطبيعي، وكان قد التحق بالثورة أو التنظيم الآخر، جاء يقدم تنويرًا عامًا عن الوضع بالميدان وأن الثورة ما تزال بخير.

وفي ختام التنوير انهالت عليه الأسئلة: أين جنودنا في الثورة الأم؟! وأين؟ وأين؟! إلا أنه كان يتهرب من مواجهة الأسئلة ذات الطابع الحقيقي؛ فقد تأثر بسياسة التنظيم الذي التحق به مؤخرًا ألا وهي عدم الخوض في التفاصيل وإعطاء الأجوبة المبهمة التي لا تفيد، وهذه سياسة الأنظمة الدكتاتورية التي دومًا تتهرب من مواجهة شعبها وتعمل على إضعافه بشتى السبل.

المبدأ يظل المبدأ مهما حاولت إخفاءه، ويُكشف في أول مواجهة الحقائق، فلا تعبث بمبادئك التي خرجت من أجلها والتحقت بالثورة دفاعًا عنها؛ فمن تعمل معه الآن لا ولن ينسى لك مواقف تنظيمك السابق تجاه قادته، ولن يعفيك من تلك الأخطاء، إنما هي مرحلة وستنكشف الحقيقة.

مرت الأيام والسنون الطوال بين رفقاء الأمس وتحرر كامل التراب الإريتري الهدف الأسمى لكل الشعب الإريتري بألوان طيفه المختلف، وتقلّد القائد عدة مناصب سياسية، وتنقل بين الأقاليم الإريترية المختلفة حاكمًا حتى حانت ساعة الحقيقة وكشف الحساب؛ فكان نصيبه جزءًا من ماضيه وخلفيته التاريخية التي تنكَّر لها يومًا ما، فإلى الإهمال والتناسي أولى مراحل القتل والإعدام السياسي لأي شخصية ومنها إلى مرحلة توجيه التهم له حتى يكون منبوذًا وسط مجتمعه وغير مرحَّبٍ به، فقد بدأ يتذكر كل تلك المواقف السابقة، بل ويتحدث عنها مع المقربين منه.

وفي ذات يوم خريفي ممطر، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، إذا بأحد أصدقاء الأمس يقابله في أحد المحلات التجارية التي هرب إليها كلاهما من أجل الاحتماء من المطر، ولم يكن أفضل المتفائلين يعتقد بأن لقاء مثل هذا سيكون له أثر طيب.

- ألف مرحب صديقي! ما الذي أتى بك هنا؟

- أراجع إحدى الدوائر الحكومية؟

- جميل أن نلتقي بالصدفة.

- وأنت من أين أتيت؟

- لقد كنت في زيارة إلى مدينة مندفرا.

- يا سلام! كم لي معها ذكريات في أواخر السبعينيات حينما تحررت على إيدي الثوار الإريتريين.

- للأسف تستكثر عليها اسمها الحقيقي؟

- إنها جبهة التحرير الإريترية أم النضال، هل تذكر عندما قلت لك في سمنار بأنك تنازلت عن مبادئك وأصبحت تضحك على زملائك؟ ربما قد فهمتني خطأ.

- لا للأسف لا زلت تتنكر لهم؟

- كيف؟

- حتى جبهة التحرير بدأت تسميها الثورة ألست متنكرًا لها؟

- اتركني وحالي فما عاد لي نفس في الرجوع إلى تلك الأيام، ليتني كنت مواطنًا عاديًا أعيش حياتي بكل هدوء.

وبدأ صديق الأمس يحكي له عن حال مندفرا، تلك المدينة الجميلة التي تقع في وسط الضفة الإريترية ذات المناظر الخلابة والطبيعة الساحرة، خاصة في أيامنا هذه موسم الخريف والتي تشتهر بإنتاج العديد من الفواكه وخاصة التين الشوكي بمذاقه الجميل.

وبينما يسرد له حال تلك المدينة وقف له عند إحدى المحطات المهمة، وكان يلبس جلابية بيضاء وعمامة ويمشي في أطراف المدينة، إذا به يمر على رجل ثمانيني العمر، جالس أمام بيته يحتسي الشاي في ذلك الصباح الجميل، وكانت حفيدته تجلس بجواره فلما ألقيت عليهم التحية رد عليَّ باللغة العربية الفصحى وطلب الجلوس إلى جواره، فقلت له: إنني على عجلة من أمري. فسألني عن اسمي؟ قلت: عبد الرحمن، ثم سألني أين أسكن أو من أين أتيت؟

قال لشيء في نفسي سأخبرك به قلت له: إني مواطن إريتري أقيم بالسودان.

فقام الرجل من كرسيه بصعوبة وقد أعنته على ذلك وضمني إليه وهو يرجف ويبكي في آن واحد، ويسألني أين أمي؟ أمي؟ أمي؟!

فقلت له: من هي أمك؟

فقال: جبهة التحرير الإريترية التي غرست فينا قيمًا جميلة، كانت تهتم بالتعليم والصحة، وكانت قد خرجت جبهة التحرير من هنا، والجميع في انتظارها أرجو ألا يطول الانتظار.

وبكى مسؤول الأمس بما ذكره له صديقه:

ليتنا تأملنا كثيرًا في التاريخ الحديث وكنا منصفين لدور الأجداد والآباء ولو بالقدر اليسير. إذا ضيعت أهدافك فحافظ على ذكراها للأجيال حتى لا تنسى وينساك معها الزمان مندفرا.

***

أغردات

أغردات، إنها حاضرة إقليم القاش بركة في ذلك الوقت، إنها أكبر مدن الغرب الإريتري، حيث تتخللها الجبال ويروي أرضها نهر بركة، حيث البساتين التي تشكل جزءًا كبيرًا من المنطقة التي تمتد على طول نهر برك، ولشجر الدوم رونق خاص ومكانة طبيعية حينما تعانق أغردات طبيعتها زراعيًا حيث يعمل معظم سكانها بمختلف أنواع الزراعة وللثروة الحيوانية، إنها مكانة خاصة فيها شهدت أغردات أول حالة تمرد على العدو الإثيوبي، كان ذلك بمحاولة تفجير أحد مصانعها.

عبد الرحمن رجل ستيني العمر وأحد أكبر تجار المدينة، بل من وجهائها، حيث يقوم بإرسال البضائع عن طريق الجمال إلى كل مناطق القاش وبركة في ذلك الوقت.

طويل القامة، فارع الجسد، ذو وجه مدوَّر، يرتدي كعادة أبناء المنطقة، الثياب البيضاء، جلابية، طاقية، سيدرية، يمشي بين أبناء أغردات بتواضع جم مما زاد من شعبيته، وأصبح رمزًا من رموز المدينة، وذو سمعة طيبة مع أبناء الريف الغربي حيث يرجعون إليه في الكثير من الأمور التي تهم المنطقة.

ياسين ابن الناظر هو الآخر طيب المعشر، أكتسبه شهرته من خلال عمله بسوق المواشي ضمانًا في عمليات البيع والشراء

التي تتم؛ لما تمثله القبيلة من مكانة بين الناس، ولكل قبيلة لها علامة مميزة تجدها في بهائمهم من خلال النظرة الأولى للأبقار أو الأغنام، بل حتى الإبل تعرفها بأنها تتبع لقبيلة بعينها.

ياسين من خلال جلساته مع أبيه العمدة مع أشهر قبائل المنطقة اكتسب العديد من الصفات، وعرف العديد من الميزات التي يستطيع من خلالها الفصل بين أبناء ومكونات تلك المدينة.

ياسين قصير القامة عريض المنكبين، كثيف الشعر، ذو بشرة سوداء، رجل تعلو وجهه علامة السجود جهوري الصوت رغم قصر قامته، محب للناس ويطلق عليه شيخ المساكين، حيث إنه في كل يوم جمعة بالمسجد الكبير يسخرِجُ مبلغًا من جيبه ويمر بالصفوف مرددًا: هيا نخرج لمساعدة المساكين، يسلِّم المبلغ لإمام المسجد الذي بدوره يوزعه للمستحقين من فقراء المدينة.

في مساء كل يوم يلتقي عبد الرحمن التاجر مع ياسين شيخ المساكين بمقهى محمد حامد، المقهى الذي يتوسط سوق أغردات حيث يتبادلون الحديث عن أمور الدين والدنيا وحالة البلد وأخبار الثوار الإريتريين الذين يجوبون طول البلاد وعرضها في عمليات كر وفر مع العدو الأثيوبي الغاشم.

كان ذلك في بداية سبعينيات القرن الماضي، وفي فصل الصيف تجد المدينة شبه خالية من السكان؛ لأن درجة الحرارة فيها لا تطاق، ولأن الحياة بدائية فيها فتجد معظم سكانها يحتمون بالبساتين التي تمثل المأوى والملاذ الآمن.

في هذا الفصل، وفي الفترة المسائية تجد منابر اجتماعية بالأحياء، مجموعة تجلس هنا في إحدى الطرقات يتحدثون عن أمورهم وأخرى هنالك، فما أجمل الأمسيات بمدينة أغردات تحت ضوء القمر الذي يعطيها بعدًا آخر، ويشكل لها لوحات جمالية، الكل مبتهج في يومه وليلته.

بساطة الناس تعكس لك روعة الحياة، في صباح كل يوم تجد الزيارات المتبادلة بين كبار السن، وما أجمل مجالسهم حينما يجتمعون أمام المسجد الكبير بعد كل صلاة هذا يتفقد ذلك.

– أين فلان؟ أحدهم يسأل.

– ربما مريض.

يجيب آخر: هيا بنا نزوره ونتفقده.

يخرجون في منظر جميل ثلاثةً أو أربعةً بل خمسة ربما أكثر يتجاذبون أطراف الحديث في زيارة غير مرتبة أو محددة مسبقًا يطرقون باب المنزل؟ تفتح الباب زوجته:

- مرحبًا بكم .

وتختفي خلف الباب وتغطي وجهها بما تبقى لها من طرحتها، إنها العفة.

- سيدتي أم إبراهيم.. أين أبو إبراهيم؟

تتوجه لهم بالإجابة:

- أبو إبراهيم موجود بالمحل.

يدخلون على رفيقهم ويلقون عليه التحية ويردها لهم:

- كنت اليومين الماضيين بالبستان فلا بأس أخوتي.

- فقدناك بالمسجد فقررنا زيارتك.

- شكرًا لكم أحبتي وأهلي الكرام.

هكذا يتبادلون أطراف الحديث.

هيلي ضابط إثيوبي برتبة مقدم، طويل القامة، نحيل الجسم، أعرج في مشيته، أبيض الشعر، خمسيني من العمر، غليظ الطباع يحمل حقدًا على الثورة الإريترية؛ فهو من الذين جرحوا في معركة تقوربا قبل عقد من الزمان حينما كان ضابطًا حديث التخرج من الكلية الحربية للإمبراطورية الإثيوبية، تم تعينه مديرًا للمدينة بمثابة الحاكم المطلق لها.

جاء بكل هذه الخلفية، فأول ما قام به هو فرض حالة الطوارئ في المدينة من السادسة مساءً إلى السادسة صباحًا، وألغى بذلك صلاة العشاء في تحدٍ سافرٍ للسكان، بدأ يجنِّد أبناء المدينة كي يجمع معلومات عن الثورة، ولكنه قوبل بالرفض التام، أوقف سوق المواشي كليًا في إطار سياسته الاحتقارية للمدينة، بدأ يطارد الشباب في السوق ويتوجه بسؤاله المعهود أين تسكن؟

- اذهب إلى دارك الآن.

جمع تجار المدينة ففرض عليهم إبلاغه بكل حركة للإبل من أين وإلى أين وتقديم تقرير كامل لما تحمله من بضائع.

فكان الصدام بين عبد الرحمن التاجر وياسين مسؤول السوق.

كان عبد الرحمن التاجر يدعو للثورة من حين لآخر مستفيدًا من حرية حركته، وياسين يجمع المال من الموثوق بهم من أبناء المدينة وأصحاب المراكز والنفوذ، وكانت الثورة الإريترية تتلقى هذا الدعم النوعي والمعنوي، بل كانت مجالس السمر المسائية لأبناء المدينة عبارة عن منتدى يتفكرون فيه في كيفية دعم الثورة.

انتهى كل شيء بالمدينة، بل كادت أن تنتهي ملامحها، فلا سوق يعمل كما كان ولا مزارع يتحرك كيفما يشاء، وحتى زيارات

الأهل والأصدقاء قد خفت، وأصبح الناس يعيشون في حالة عزلة تامة، وكثرة الأحاديث التي تحمل طابع العمل الدعائي ضد الثورة؛ فتسمع تارة اغتيال شخص بسببأنه مشتبه به لخدمته للثورة، وآخر أعتقل، وثالث سجن، وكلها في إطار الحرب النفسية التي يزرعها هيلي ومجموعته من الجنود الإثيوبيين.

كان هيلي يجمع سكان المدينة أو من يوجد بالسوق في صباح كل أحد، ويلقي عليهم محاضراته التي تتسم بالوعيد والتهديد والتقليل من شان الثورة، وكان يصف الثوار بأنهم مجرد مرتزقة يعملون لمصلحة دول أخرى ويختم حديثه: من هنا عليكم أن تحذروا التعامل معهم وتقديم الدعم، وأنني، أي هيلي، لدي من يخبرني بكل صغيرة وكبيرة عن أحوال المدينة وسكانها.

سجن هيلي التاجر المعروف عبد الرحمن دون سبب ودون توجيه تهمه له، بل في كل اجتماع يعقده لأبناء المدينة كان يقدم لهم معلومات مضللة على أن عبد الرحمن اعترف بدعمه للثورة وقدم قائمة بأسماء المتعاونين معه، وأننا سوف نعفو عنه ونقدّم الباقين للمحاكمات العسكرية.

وفي يوم من أيام شتاء أغردات القارس، وبعد منتصف الليل تتحرك مجموعة من السيارات العسكرية والجنود صوب منزل

ياسين الشخصية البارزة بسوق المواشي ويطرقون الباب، ويخرج لهم ياسين:

- من أنت؟

- أنا ياسين!

- هيا معنا؟

- إلى أين؟

- حكومتك تريدك؟

- أنتم لستم حكومتي.

- كيف لك أن تقول هذا؟!

- الموت مرة واحدة وأنا لا أهابه.

يقتادونه إلى السجن والمدينة نائمة.

كانت زوجته تقول:

- استودعتك الله فإن ودائع الله لا تضيع.

يجمع القدر بين زملاء الأمس عبد الرحمن وياسين في السجن بعد أن كانا يجتمعان في مجالس السمر ورحابة الحرية:

- السلام عليكم أخي عبد الرحمن!

- وعليكم السلام شيخنا ياسين.

يتبادلان أطراف الحديث عن المدينة، ويقدم ياسين الشرح الوافي لعبد الرحمن، ويؤكد له أن هيلي دومًا يقدم معلوماتٍ مضللةً عن جميع المعتقلين بهدف زعزعة صمود الشعب.

وتمضي بهم الأيام سجناء دون توجيه أي تهم لهم، يقضون يومهم في التفكير في هموم الوطن.

يستعمل هيلي أسوأ أنواع العقوبات، سهر، إزعاج بغرف السجن، أعمال شاقة، وفي كل لقاء بهما يطلب منهما تقديم اعتذار للشعب، فيرفضون جملةً وتفصيلًا، يهددهم بالقتل؛ فيرددون :

– ما أجمل الموت من أجل هدف، فلن نغيِّر قناعتنا، أنت مجرد مستعمر ومتغصب.

كانت الثورة تتابع ما يجري لشعوبها في تلك المدينة الثورية، والتي أصبحت مدينة أشباح بفضل هذا الضابط، وبدأت بأول الخطوات إلا وهي إرسال رسائل إلى هذا الضابط تارة بوضعها أمامه في شكل ملصقات بباب مقره، ومرة أخرى بإرسال أحد الأسرى من الجنود الإثيوبيين لدى الثورة، ولكن دون جدوى.

فكان الضابط المغرور، يبلغ المواطنين ويعكس لهم تلك الرسائل باعتبارها مناشدة واستغاثة من الثوار، وأن مبدأ

الإمبراطور الإثيوبي يرفض كل تلك الأشياء، بل يؤمن بوحدة إثيوبيا، ويكرر دومًا:

- قريبًا سيعود أبناؤكم إلى دياركم خاسرين صاغرين، مهزومين.

قررت الثورة الإريترية التخلص من هذا الكابوس الذي لا يؤمن إلا بلغة القوة؛ فكانت تدرِّب جنودها على تنفيذ عملية فدائية ذات خسائر قليلة بين المواطنين، تستفيد من المنبر الأسبوعي لهذا الضابط، وقد تحمس كل الجنود لنيل هذا الشرف، ألا وهو تنفيذ عملية قتل هذا المجرم.

وبعد عدة عمليات تدريبية وتخطيط تم اختيار كل من محمد علي وسليمان نور، وكلاهما من الجنود الذين التحقوا بالثورة في بواكير أيامها ومن أبناء أغردات.

في يوم خريفي ممطر، وفي منتصف شهر أغسطس حيث المدينة تكسوها الخضرة، دخلا مساء السبت خفية تحت جنح الظلام مستغلين معرفتهم بتفاصيل المنطقة، فقد أمضيا يومين ببستان الشيخ عثمان المعروف بكثرة أشجاره والقريب من المدينة، وحددا الوقت المناسب لدخول المدينة، فكللت عملية التسلسل بنجاح تام.

وفي صبيحة يوم الأحد اليوم المعروف بمؤتمر الضابط إذا بهما يسجلان حضورًا مشرِّفًا، متخذين مواقع تتيح لهم عملية الاغتيال؛ فكان محمد علي بالجهة اليمنى للحضور، وسليمان نور بالجهة اليسرى، وبدأ الضابط يكيل الشتم للثورة كعادته، ويقدم أدلة كاذبة على نجاح جيش الدولة، وبينما الهدوء يلف الحضور، وبدأت الأمطار تهطل في زخات بسيطة، والجو جميل، أطلق محمد علي ثلاث رصاصات صوب الضابط فسقط قتيلًا، وسط ذهول الجميع، وتقدم حارسه بإطلاق نار صوب محمد علي، فإذا سليمان يطلق عليه رصاصتين كانتا كفيلتين بإنهاء حياته إلى الأبد، وبذلك تخلصت الثورة من أكبر أعدائها، وصاحبَ العمليةَ هرجٌ ومرجٌبين الحضور.

خرج الفدائيان بسلامٍ إلى أحد البساتين ومنها إلى الثورة فأبلغا قادتهما وقدما لهما الشرح الوافي عن العملية التي أذهلت إثيوبيا.

عين الأمبراطور ضابطًا آخر لإدارة المدينة، إنه محاري، فقام برفع حالة الطوارئ من المدينة وخفف من التجمعات، وظل يجمع الناس كعادة سلفه هيلي، ولكن من أجل حماية المدينة، بل كان يقول:

- أعرف أنكم تكرهونني وأطلب من مناديب الغابة الموجودين بيننا أن ينقلوا حديثي كما هو حينما يذهبون..

لكن يبدو أنه لم يتعلم الدرس جيدًا مما حدث مع سابقيه؛ ففكر الثوار في طريقة للخلاص منه.

***

قراءة فى المجموعة القصصية

«انتحارعلى أنغام الموسيقى»

«انتحارعلى أنغام الموسيقى» جملةٌ تجبِرك على الوقوف أمامها؛ فكيف للموسيقى أن تجتمع والموت في آن واحد؟ كيف لعقلٍ أن يقرر أن ينهي حياته على وقع الموسيقى، ألم تربط الموسيقى على قلبه؟! ألم تسكِّن روعه؟ ألم تأخذ بعقله المجهد لتخرجه من شعور الرغبة في الموت إلى التمسُّك بالحياة!

ربما كان اسم تلك المجموعة القصصية حالةً عامة لما تنطوي عليه الإحدى عشرة قصة؛ فواقع الحياة أشبه بالنوتة الموسيقية التي قد تقبل عليها وتستمتع بها أو تجبر على التعايش معها رغم رفضك لها بدافع الذوق أو العقيدة، وربما كانت الحياة الاضطرارية المفروضة على الإنسان في ظرف من الظروف نوعًا من الانتحار، ليكون انتحارًا مقننًا بالبطء على وقع الموسيقى، فكلٌّ منا يتلاعب بمحيطه حتى يمكنه التأقلم عليه والتعايش معه، وهذا ماحاوله الكاتب السوداني الإريتري هاشم محمود أن يوثِّقه في مجموعته.

فأحيانًا تقبل واقعك كما هو في «ابنة الحرام»، وأحيانًا تثور عليه كما في «اغتيال المستعمر»، وأحيانًا أخرى تُجبر على قبوله لأنها إرادة القدر كما في «زفاف على قبر ميت».

المحصلة أنك تتعايش وَفْقًا لقدراتك وتفاعلك مع معطيات الحياة، لكن تظل مخاوفك هي المحرك الكامن لك حتى لو كنت تظن عكس ذلك، كما هو في «العذراء والكابوس».

هذا العمل يمكن أن يقسم لثلاثة عناصر؛ فيطغى عليه الجانب الاجتماعي والإنساني بشكل كبير، في سرد قصص لمشكلات مجتمعية حقيقة تحدث في واقعنا العربي بشكل يومي لا يمكن إغفالها أو تجاهلها، مثلما في «جريمة في محطة الأسرة» أو «عذراء أسفل عجلات القطار».

في الوقت الذي يصر فيه هاشم محمود على الصراخ في وجه موبقات المجتمع وتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة عن فكرة الشرف والعرض، ليؤكد أن للرجل بكارة مثل المرأة، والبكارة ليست في جزء من الجسد، لكنها كل الجسد، وكل النفس، فالشرف في الكلمة وفي الإيمان وفي كل مواطن الإنسان.

بينما العنصر الثالث عندما تجد الكاتب يصر على أن تحتوي المجموعة على قصص وطنية عن نصرة الوطن من حروب مستميتة

خاضها أمام مستعمر غاشم تجدها في «اغتيال المستعمر»، «انتحار على انغام الموسيقى»، وربما ذلك يرجع إلى شخصية الكاتب ونشأته؛ فلم يستطع الانفصال عما في ذاكرته المريرة من تاريخ أسود مرَّ على وطنه الحبيب، ليتحرر في النهاية هذا الوطن من غزو إثيوبي غاشم.

المجموعة القصصية تشعرك بأن أحداثها حقيقية وواقعية، أحيانًا تجدها بصيغة الأنا، وأحيانا بصيغة الحوار، ومرات كثيرة بصيغة الغائب، لكنها اجتمعت في البساطة والسهولة في السرد وفي اللغة دون إسهاب ممل، فهي جرعةٌ مركزةٌ لقضايا مؤلمة تدور داخل النفس وخارجها.

المأتم والفقدان والوحدة والشرف، والحب والخيانة، جميعها مشاعر إنسانية ساقتها هذه المجموعة لتجبرك على الاستمرار لمعرفة نهاية كل قصة؛ فالغموض الذي يسود بعض القصص وعنصر التشويق الذي يتخلل العمل يجعلك تصر على الاستمرار انتظارًا للنهاية.

أحيانًا تشعر بأن تلك الأمراض المجتمعية والأسرية جعلتك شخصًا مراقبًا لها تريد أن تراها تندثر وتخفق، وأحيانًا تجد نفسك داخل الأحداث لتتقمص شخصية من شخصيات العمل رغبة في تعديل المسار والعدول عن سير الأحداث.

تجبرك المجموعة أن تعيش حالة خاصة واستثنائية مع كل قضية من قضاياها المنفردة، دون تعقيدات لغوية؛ فعفوية الحكي وبساطته يجعلك تنتصر للإنسانية بشكل عام، تارة مع الرجل وتارة أخرى مع المرأة، وفي لحظات كثيرة مع الوطن.قد تجد نفسك داخل العمل ربما في امرأة مظلومة، أو في سيدة مسكينة أو في رجل كتب على جبينه الشقاء، أو بين أشقاء جمعهم الوطن وفرقهم المستعمر.

تنوعت طريقة السرد ومعالجة الأحداث، فأحيانًا تبدأ بالنهاية اعتمادًا على عنصر التشويق، وأحيانًا تبدأ منظمة في ترتيب الأحداث، ليأخذك كل عمل إلى حالة مغايرة لما قبلها وما بعدها، كما هو الحال في «خيانة فتاة تحب الإهانة».

حرص الكاتب على ألا ينتصر لأحدٍ على حساب المبدأ، فقط انتصر للإنسان، ففي «ليلة حمراء» خرج منها ليدخل في «عدو الأمس صديق الغد»، فكل يجني حصاده الرجل المخطىء يتحمل عواقب فعلته، والمرأة تتحمل نتاج خطأها، كل يحمل خطأه على عاتقه.

وعلى جانب آخر تجد أن الأخطاء البشرية غير المقصودة هي أيضًا درسٌ وعبرةٌ لما بعدها، فإن شرع المخطئ في تحمل عواقب

ماهو غير مقصود، كان ذلك درسًا لما قد يسير عليه الركب فيما بعد، حتى وإن كان العقاب نفسيًا وليس ماديًا كما هو في «زواج بقرار قبلي».

تحمل أيضًا بعض الأعمال جانبًا من البساطة الشديدة سواء في العنوان أو في النص؛ ففي «مرحبا مدرستي»، تظن أنها لا غموض فيها ولا إثارة، لكنها تأخذك إلى حيث الأوطان ونتوءات الاستعمار، والتي يبنى على ضفافها تفوق أحد الطلاب علميًا في ظل فقرٍ مدقعٍ وقصة حبٍّ لم يكتب لها النجاح؛ لتظن أن ذلك الواقع الذي عليك أن تقبله وتتعايش معه.

في النهاية هذا العمل وما يحمله من بعض الغموض وكثير من التشويق يثير بعض التساؤلات المشروعة؛ فإلى متى يستمر الألم؟ ومتى يتوقف؟ وهل يمكن للموت أن ينهي حالة من حالات اليأس والألم؟ وهل الإقدام عليه نوعٌ من الضعف والاستسلام أم من القوة والعزيمة؟ وهل تستقيم الحياة حتى وإن مات الحب؟ وهل فقدان الحب يفقدك الرغبة؟ وهل موت الرغبة يقودك إلى نهايتك؟!

أحمد سالم

فهرس

الإهداء 5

المقدمة 7

ابنة الحرام 8

خيانة فتاة تحب الإهانة 26

انتحارعلى أنغام الموسيقى 34

زواج بقرار قبلي 44

زفاف على قبر ميت 53

جريمة في محطة الأسرة 65

ليلة حمراء 77

مجموعة الطوابير 94

عذراء أسفل عجلات القطار 108

العذراء والكابوس 127

مرحبا مدرستي 139

عدو الأمس صديق الغد 155
اغتيال المستعمر 172
أغردات 181
قراءة فى المجموعة القصصية 193